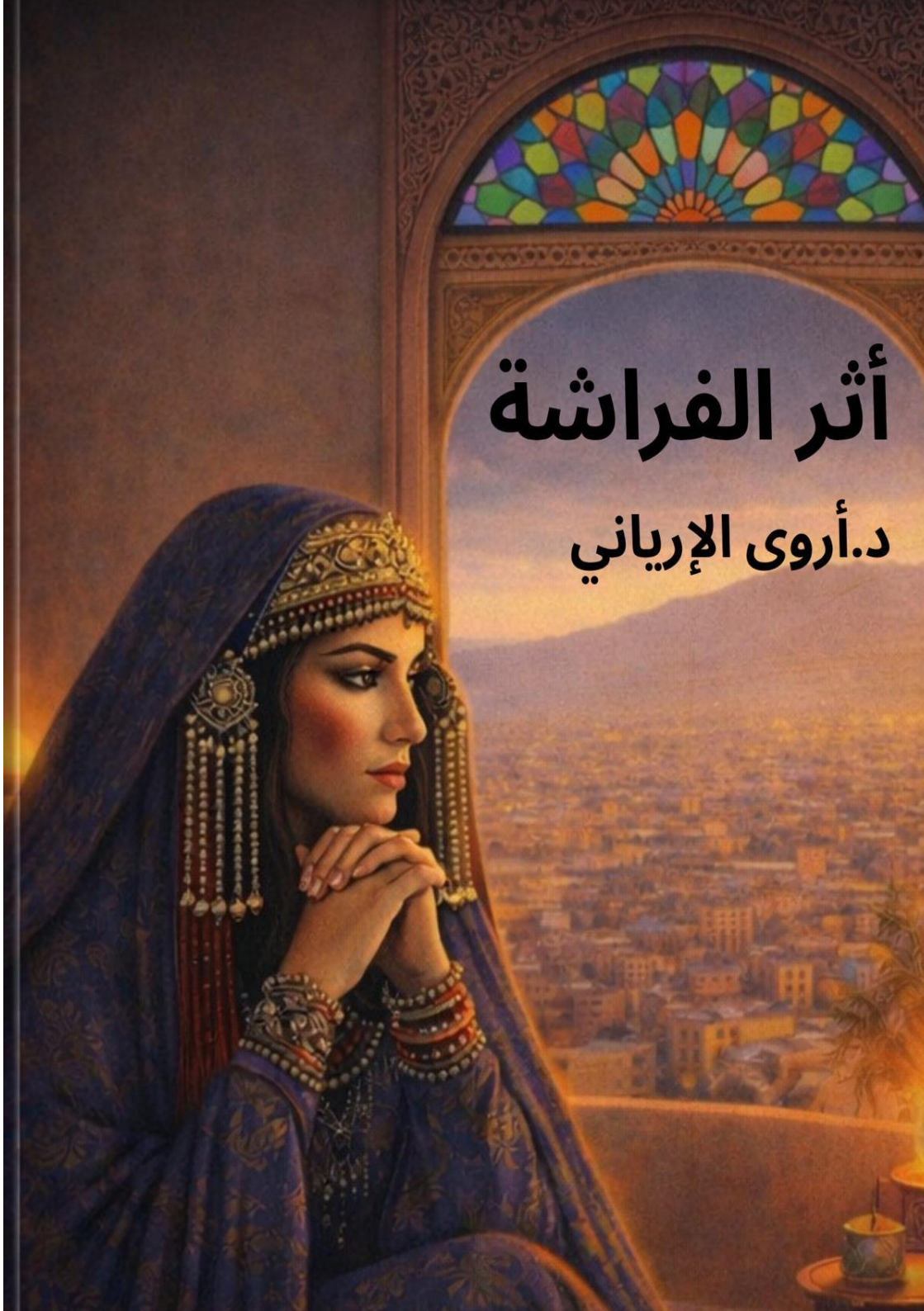
أثر الفراشة
د.أروى الإرياني

أثر فراشــة

(**رواية**)

أروى يحيى الارياني

أثر الفراشة 🦋

هذا كل شيء.

استمر في عمل ما تناديك له روحك بهدوء،

فأنت لا تعلم ما تتركه من أثر على أحدهم في نصف الكوكب الآخر...أو في كوكب آخر.

لأنه ليست زمجرة الرعد هي التي تنبت الزهر وانما ديمة المطر.

لأن اندفاع النهر يجرف الصخور بعيداً عن أرضها، يحزنها، وقد يحطمها، بينما انسياب الماء عليها بلطف يصقلها في مكانها، يجعلها لامعة، جميلة.

أثر رفيف جناح الفراشة، هذا كل شيء 🦋

صبا يحيى الارياني

كاتبة في التنمية الذاتية

(1)

نهضت زينب من نومها على رنين المنبه "يوم جديد"، هكذا فكرت، ولكنها تعلم أنه يوم مكرر، لا جديد فيه ولا جديد أصلا في حياتها، العمل نفسه كل يوم. فتحت ستارة النافذة، فدخلت أشعة الشمس تُضيء عتمة ظلام الحجرة، غادرها بقايا النعاس، وبدأت بالتجهيز للعمل. خرجت من حجرتها لتساعد أمّها في إعداد الوجبة الصباحية للعائلة، وقد ارتدت العباية والحجاب، كان التلفاز يذيع افتتاحية الصباح بما يتيسر من القرآن الكريم، أكملت مساعدة أمّها، وأعدت لها شريحة خبز مع بيض وجبن، وغلّفته ووضعته في حقيبتها اليدوية، وودّعت أمها بقبلة طائرة، وأسرعت تلحق موعد العمل وهي تضع النقاب على وجهها.

عندما عادت زينب في نهاية ذلك اليوم، كانت الساعة قرابة الثانية ظهرا، بعد يوم مرهق في عملها الروتيني، الذي ينصب على كتابة التقارير وملخصات الاجتماعات؛ وإرسال الرسائل وتنظيم الملفات؛ وغيرها من الأعمال التي ينتهي اليوم ولا تنتهي فيه الأعمال. هذه هو طبيعة عملها والذي لا تحبُّه ولا تكره، وتفرح آخر الشهر بالراتب الذي تستلمه. في ذلك اليوم استقبلتها أمّها على مدخل باب المنزل وعيناها تبرق بهجة، تجاهلت زينب بهجة أمّها؛ رفعت نقابها وسارت باتجاه حجرتها؛ وهي تشكي يومها المتعب والجو الحار وازدحام الحافلة،

وقد شغلتها نظرات أمّها وجعلتها تتساءل في نفسها؛ هل ما تنتظره قد حدث؟ هل هناك عريس في الأفق؟ أنها نفس نظراتها لشقيقتها زهرة عندما تقدم لها مازن، "إن شاء الله خير يا ابنتي"؛ رددت أمها هذه العبارة خلفها ردا على شكواها، ففكرت زينب هل هذه هي الإشارة الثانية (بعد النظرات المبتهجة)، ورقص قلبها فرحا وترقُبا.

دخلت حجرتها وأغلقت الباب؛ وكأنها خشيت أن تفضحها البهجة على وجهها، "هل تقدم لي عريس؟ هل سأتزوج؟ ويصبح لي بيتي الخاص؟ أسرتي الصغيرة؟". خلعت عبايتها وعلّقتها على الشماعة وكذلك حجابها ونقابها، وجلست على سريرها متأملةً الموقف "هل سأصبح عروسا!؟ زوجة؟ وأمّاً؟" عادت تفكر بتلك العائلة التي طالما تمنت أن تكون لها، لم تفكر كثيراً في العريس من يكون، ما اسمه؟ ماذا يعمل؟ وتذكرت عندما خُطبت زهرة كيف انهالت على أمّها بالأسئلة عن العريس، كم عمره؟ ماذا يعمل؟ ماذا درس؟ ... الخ. أغلب صديقات زينب قد تزوجن، وبعضهن أصبح لهن ولد أو بنت " هكذا تسير الحياة" فكرت زينب، " بالتأكيد سيكون لي نفس الوضع وإن تأخر قليلا".

*****

زينب عبد القادر، فتاة جميلة الملامح، قمحية البشرة، شعرها طويل ناعم، متوسطة الطول، رشيقة الجسم – كما هو معتاد في أغلب الفتيات في عمرها–

ملامحها رقيقة ومتناسقة مع بعضها؛ وما كان يعيبها إلا أنفها الذي كان أكبر قليلاً من ملامح وجهها الرقيقة. تعمل سكرتيرة في الإدارة المالية في شركة عقارات خاصة منذ أن تخرجت مباشرة، أي منذ عامين. اقتنعت زينب بالوظيفة، رغم أنها تخرجت بامتيازٍ من قسم المحاسبة في جامعة صنعاء، ولكنها لم تجد عملاً في مجالها، ولم تبحث وقتًا طويلاً، واعتبرت نفسها محظوظة أن وجدت عملا في مثل هذه الأيام الصعبة. قبلت بوظيفتها؛ وحمدت الله أن لديها دخلًا شهريًا يساعدها في تغطية احتياجاتها الخاصة؛ والتخفيف عن أبيها وخاصة في ظل هذه الظروف، وانعدام الرواتب التي تعيش فيها البلد.

لم تدرس زينب الجامعة في أجواء طبيعية، فمن سوء حظها وحظ جيلها أن الحرب التي تدور رحاها في كل مناطق اليمن؛ والصراعات التي كانت تعصف بالبلد، كانت في أشُدها، ممّا أجبر الجامعة (كل الجامعات والمدارس) أن تغلق أبوابها حينا وتفتحها حينا آخراً، وكان أسوء حدث هو ما تم في صباح شاحب من ديسمبر 2017، عندما اغتيل الرئيس لا على منصة وهو يلقي خطاب ولا في قصره، بل على قارعة الطريق، بعد معارك بين قواته وجماعة أنصار الله برصاصة لم تمنحه حتى فرصة الوداع. كان مشهداً مؤثرا على كافة اليمنيين عندما شاهدوا على وسائل التواصل الاجتماعي كيف سُحب جسده، وعُرض وجهه للكاميرات، في مشهد لا يشبه كل مَشاهد سلطته الطويلة، فكان منظرا خلّده التاريخ كيوم

فارق في حياة اليمنيين الذين عاشوا عصره متذبذبين هل كان جيداً؟ أم فاسداً؟ ولكنهم اتفقوا أن زمنه كان أفضل من الآن.

وعندما تخرجت زينب في 2018 كانت البلد قد اعتادت العيش في ظل هذه الظروف، الكل يكافح والكل يبحث عن لقمة العيش؛ مع استمرار المعارك بين (أنصار الله) الحوثيين وقوات الحكومة والتحالف، وتصاعد الأزمة الإنسانية. لم تعِش زينب فرحة التخرج كما كانت تتوقع؛ لأنها صُدمت بخبر مغادرة صديقتها المقربة منال– والتي ترافقا في دراستهما من الابتدائية حتى الجامعة– لليمن وهجرتها مع أسرتها إلى كندا؛ حيث كان أخوها الأكبر يدرس في مدينة تورنتو؛ واستقر هناك بعد قيام الحرب؛ وتمكّن من إيجاد وظيفة مكّنته من استدعاء أسرته الذين حصلوا على فيزة زيارة؛ وانتظروا بفارغ الصبر تخرُج ابنتهم منال، للرحيل النهائي من اليمن. لم تكن زينب تعلم بذلك؛ لأن أسرة منال طلبت منها التكتم على الخبر تماما وعدم إخبار أي شخص مهما كان قريباً؛ وكانوا يعتبرونه سرهم الذي يجب أن يتم بهدوء ودون إعلان. ولكن قبل حفل التخرج؛ وقبل رحيلهم بأسبوع؛ أخبرت منال صديقتها زينب؛ ووجدتا وقتا لتبادل الذكريات مع كثير من الدموع، قبل أن تغادر.

لدى زينب شقيقتان (زهرة وزينة) وشقيق واحد (زيد)؛ زهرة الشقيقة الكبرى وتكبر زينب بثلاث سنوات، تزوجتْ من شاب يُدعى مازن منذ ثلاثة أعوام.

متخرجة من قسم إدارة الأعمال، عملت في أماكن مختلفة على فتراتٍ متقطعة. مؤخرا أصبحت عصبيةً؛ ولذلك تنشب كثير من الخلافات في العمل، وتتركه غير آبهةٍ فيه. كان تأخرها في الحمل، وتكرار والدة زوجها سؤالها عنه بشكلٍ دائم؛ سبباً للعصبية التي تنتابها كلما واجهت مشكلة في عملها مهما كانت صغيرة. ولكن زوجها كان يتجاهل موضوع الأطفال؛ ويعتبر ثلاثة أعوام ليست بالكثير؛ ولا يجد داعياً للقلق. يعمل مازن مديرا في معرض مفروشاتٍ يملكه أبوه، ويعيشُ حياته بطريقته الخاصة التي تزعجُ زهرة كثيرا، وتشكي همها لأمّها دون تفاصيلٍ؛ وتشكو لزينب بكثيرٍ من التفاصيل.

الشقيقة الصغرى زينة تعيش عالمًا خاصًا بها، تدرس هندسة ديكور في عامها الأخير، ولديها طموحٌ لتصبحَ مهندسة ديكور مرموقة؛ وتقوم بعمل الديكورات لأصحاب المنازل الكبيرة والقصور التي بدأت تظهر هنا وهناك في الأحياء الراقية رغم ظلال الحرب والحصار. زينة فتاة دائمة التذمر من وضع البلد الذي شكّله الحرب المستمرة؛ وتفاقم المشاكل والصراعات والقيود الكثيرة التي فُرضت على النساء وقيدت حركتهن بدرجة أكثر مما كان معتاداً عليه سابقا، حتى دراسة الجامعة لم تقبل بها في جامعة صنعاء؛ وأصرّت على دخول الجامعة اللبنانية لتميُّز هندسة الديكور فيها، رغم اعتراض الأب – ليس بسبب الرسوم المرتفعة فقط؛ ولكن لأنها جامعة مختلطة–؛ وبالأخير وكما صار معتاداً، حصلت زينة على ما

تريد وخاصة بعد أن سعت للحصول على منحة في الجامعة أهلّها لذلك معدلها المرتفع، فشعرت بقوة أكثر للصراع من أجل حلمها بالدراسة في الجامعة اللبنانية.

زيد، الأكبر منهن، محاميٌ يعمل في مكتب محاماة؛ ويخطط أن يفتح مكتب محاماةٍ خاصا به. متزوجٌ من فتاة تدعى نهاد منذ خمس سنوات، يعيش في منزلٍ مستقل، وزوجته حاليا حامل بطفلهما الثاني. كان زيد ابنا بارا، أنهى دراسته بنجاح ولم يسبب لأهله أي مشكلة أثناء فترة المراهقة والدراسة، كما كان أخا حنونا، فلم يكن يقيّد شقيقاته طالما الأب موجود، ولم يكن يحتج على أي شيء وافق عليه الأب.

الأب الأستاذ عبد القادر حسين، يُعرف بين أصدقائه وزملائه بلقب "الأستاذ" مدير مدرسة، صارم، وحازم، يهتم بدراسة أبنائه ومتابعتهم عندما كانوا بالمدرسة؛ وبمجرد دخول كلٍ منهم الجامعة، أهتم بتنمية مهاراتهم وطموحاتهم، وكان لين الجانب معهم خاصة بعد أن تجاوزوا عمر الطفولة. عمل مدير مدرسة حكومية لسنوات طويلة، تركها بحجة التقاعد عندما انقطعت الرواتب في ظل الحرب التي اجتاحت اليمن في العام 2015، وحصل على عمل مماثل في مدرسة خاصة ملكاً لصديقه، فُتحت حديثا فكان من المحظوظين في ظل انتشار البطالة بين الشباب؛ وانعدام فرص العمل. بينما الأم (ليلى) تخرجت من كلية الآداب

قبل أن تتزوج مباشرة، ولكنها لم تعمل مطلقا، انشغلت في تربية الأبناء والإشراف على كافة شؤون البيت، وتدير أموره بجدارة.

أسرة الأستاذ عبد القادر أسرة متوسطة الحال، يعيشون حياة هادئة، لا يملك أيٌ منهم هلع الثراء؛ إلا زينة إذ بدأت أحلامها تخرج عن طوق الاعتدال الساري في الأسرة. يقع منزل الأستاذ عبد القادر في حي متفرع من شارع الزراعة، عاش فيه عندما تزوج وامتلكه ضمن ميراثه عندما تُوفي والده، كان المنزل مكوّن من طابقين، الطابق الأول مرتفع عن الأرضُ يصعد إليه من خلال بضع درجات، وفي هذا الطابق المجلس المخصص للضيوف؛ وله مدخل من شرفة المنزل (مدخل للرجال)، مقابل الباب الجانبي للمنزل، كما يحتوي الطابق على حجرة المعيشة العائلية؛ وتتكون من حجرة التلفاز وطاولة الطعام، وفي الطابق أيضا حمام ومطبخ متوسط الحجم، أمّا الطابق الأعلى فيوجد فيه صالة صغيرة وثلاث حجرات وحمام خاص بالطابق. للبيت حديقة خلفية صغيرة، تنشغل بها الأمّ أغلب صباحتها، زرعت فيها الطماطم والبطاطا والجزر والريحان والنعناع؛ وكان هناك ثلاث أشجار مجاورة للسور؛ أشجار التوت زُرعت منذ زمن؛ وكذلك شجرة تفاح لا تنبت بشكل جيد. للبيت سطح مرتفع السور، فيه غرفة خُصصت كمخزن للأغراض القديمة.

خُصصت الحجرة الأكبر للبنات تقاسمنها بالنوم والدراسة؛ وتحدث بينهن مشاحنات كثيرة كما هو الحال بين الأخوات، بينما خُصصت الحجرة الأصغر مستقلةً للولد بصفته الذكر الوحيد؛ ولا يستحسن مشاركته الحجرة. واحتل الوالدان الحجرة الثالثة التي لها حمامها الخاص. عندما تزوج زيد انتقل لسكن مستقل، فسارعت زينة لاحتلال حجرته رغم أنها الفتاة الأصغر، وبقيت زهرة وزينب في حجرة واحدة بسلام وهدوء وتشاركتا الأحلام والآمال؛ بينما عزلت زينة نفسها في قوقعة مستقلة منذ وقت مبكر، تبني أحلاما وتخطط لمستقبل تحلم أن يكون رائعا؛ ولا تعرف كيف يمكن ذلك في وطن يأن كل فترة وأخرى تحت ضربات تستهدف مواقعا بذاتها كل مرة؛ وتنشر الخوف والرعب والقلق. وعندما تزوجت زهرة، أصبحت الحجرة بكاملها لزينب، ولكنها افتقدت أختها كثيرا وتركت سريرها على حاله. كانت زينب هادئة الطباع، حنونة، متفهمة، تعمل في البيت أكثر من الجميع وتأخذ دور أي من أخواتها إذا كان لديهما امتحان حتى وإن لم تُعامل بالمثل، بينما شقيقتها زينة لا مبالية بالالتزام بدورها في عمل البيت، لها متطلبات كثيرة، عنيدة، تتمسك برأيها حتى وإن شعرت أنه غير سليم، تهتم بملبسها وزينتها أكثر من زهرة وزينب، كما أنها الوحيدة التي رفضت ارتداء النقاب عندما دخلت المرحلة الثانوية في المدرسة مثل شقيقاتها؛ وأصرت على الرفض وصمدت بقوة أمام احتجاج أبويها ورفضهما، وفي الأخير وافقا على مضض بعد نقاش طويل ربما ليتخلصا من هذا النقاش العقيم.

*****

في ذلك اليوم، وبعد تناول الطعام، كالعادة جلس الوالدان في الصالة؛ وذهبت زينب لعمل القهوة لهما؛ بينما أخذت زينة دورها في رفع مائدة الطعام، وبدأت بغسل الأطباق وهي تدندن بغنيتها المفضلة (فاضي شوية لحمزة نمرة) بصوتٍ خافضٍ ولكنه جميل وشجي جدا– لم تكن أمّها تمدح صوتها، أو تظهر أي إعجاب به لأنها تخشي أن تهتم زينة أكثر بالغناء–؛ ولكن بقية العائلة كانوا يمدحون صوتها عندما يسمعونها تغني لنفسها؛ وهي تعمل أو في حجرتها.

وضعت زينب القهوة أمامهما؛ وهمّت بالمغادرة لمساعدة زينة. ولكن أمها استبقتها وهي تبتسم قائلة "لا أتخيّل البيت دونكِ يا زينب"! نظرت إليها ورسمت على وجهها الاستغراب مخفية توقعاتها، فأخبرتها أمّها دون مقدمات أن (صالح عبد الوهاب) تقدّم لها اليوم، وهو شاب جيد يعمل محاسبا في شركة اتصالات، دخله جيد وسمعته طيبة. "وهو معروف لدى الأسرة؛ فهو شقيق زوج سميرة صديقة خالتك". هكذا قالت لها أمّها.

شعرت زينب بالدم يتدفق إلى وجهها، وزادت نبضات قلبها سرعةً، وشعرت بالخجل من تبليغ أمها بخبر الخطوبة أمام أبيها هكذا دون مقدمات! ممّا أشعرها بالحرج. نهضت زينب وغادرت المكان؛ وشبح الابتسامة يلوح على وجهها، بينما

لاحقتها أمّها بضحكتها؛ ومن ثمّ أطلقت زغرودة عالية؛ جاءت على إثرها زينة تستفسر بوجهٍ ضاحك متوقعةً الحدث.

قررت زينب الاستماع لنصيحة أمّها؛ فأخذت إجازة من العمل لبقية الأسبوع– حتى يأتي الخميس موعد زيارة عائلة صالح لهم للتعارف–، وهي مرتاحة وغير مُجهدة. جلست زينب في المنزل؛ تنسج أحلامها تلك التي خبأتها في أعماقها عن العائلة التي ستنشئها؛ وعن الأطفال الذين ستنجبهم، وكيف ستهتم بهم وبتعليمهم، وغيرها من الأحلام التي كانت دائما تُدفئ قلبها الذي يحن لأحبابه القادمين.

جاءت الأمّ إلى حجرتها، وهي تشير إلى هاتفها قائلة:

- إنه وسيم – ما شاء الله– انظري.

نظرت زينب في هاتف أمّها إلى صورة العريس– والتي أرسلتها لها سميرة –؛ وتفاجأت أنها حتى تلك اللحظة لم تفكر به بشكل خاص، لم تتخيل شكله، ولكن كل تفكيرها كان منصبا على العائلة التي تحلم بها. نظرت للصورة مطوّلا بالفعل، كان يبدو شابا جميل الطلعة، له ملامح مريحة، تظهر من نظراته الطيبة والسكينة والرزانة، نظرت إليه وتعلق قلبها به مباشرة.

سألت بترقب:

- وهل أرسلتِ له صورتي؟

- بالطبع. أخبرتها أمها؛ وأكملت:

- تلك الصورة التي أخذتيها في الاستديو عند التخرج، فهي الوحيدة من دون نقاب.

صمتت وهي تشعر بداخلها بارتياح، "إذن قد تعرّف عليّ، وارتاح لي ولذا تقدم لخطبتي". هكذا فكرت، لم تكن زينب واثقة من جمالها كثيرا، فقد كان كبر حجم أنفها يسبب لها ازعاج ويفقدها الثقة بجمالها. علمت زينب من أمّها أن أمّ صالح والتي تعرف بـ (أمّ عبد الله) تضع الدنيا بكفة وأولادها بكفة، ترملت مبكرة، وتفرّغت في حياتها كلها لتربية أولادها والاهتمام بهم؛ ولم يكن لها رغبة بمجالسة الصديقات، ولا حضور جلسات القات، وصديقاتها محدودات؛ وأهم صديقة لها هي شقيقتها التي تصغرها بسنوات قليلة. اقتربت أمّ عبد الله من السبعين، وشغلها تأخر صالح بالزواج؛ وكأنها تريد أن تنهي مسؤولياتها قبل أن تغادر هذه الحياة. كان لأمّ عبد الله معتقدات راسخة؛ أهمها أن للرجال قداسة كبيرة، لذا فخدمتهم والحرص على رضاهم هي مهام الأمهات والزوجات على حدٍ سواء. وتردد دائما أمام زوجات أولادها حديث الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (لَوْ كُنْتُ آمِرًا أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لِغَيْرِ اللَّهِ، لَأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا). ووفقا للمعلومات التي أعطتها سميرة، أنها متحكمة في حياة أولادها لِما تعتقد أنه في مصلحتهم، وأنهم يشاورونها في كل أمور حياتهم، ويقدّرون لها تفرغها لتربيتهم.

سألت زينب أمّها:

- وهل تسكن سميرة في منزل الأسرة؟ فردت الأمّ:

- لا، سميرة هي زوجة الابن الأكبر (عبد الله)، لم تعش مع العمة في بيت واحد؛ لأنها عندما تزوجت –منذ أكثر من عشر سنوات تقريبا– رحلا مباشرة إلى السعودية، وعاشا هناك خمس سنوات؛ وعندما عادوا كان (وهيب وعماد) – إخوة عبد الله– قد تزوجا في نفس البيت (بيت الأسرة)؛ ولذلك استقل عبد الله مع أسرته في بيت مستقل رغم معارضة الأمّ. فلم تعش سميرة مع عمتها في نفس البيت مطلقا ما عدا أيام قليلة في الإجازات التي كان عبد الله يزور فيها اليمن.

*****

في الوقت الذي كانت الأسرة تنتظر موعد زيارة أمّ صالح للمنزل رسميا، كان والد زينب يتحرى عن الأسرة من خلال معارف مشتركين، فعرف أن عائلة صالح تعتبر من العائلات الميسورة والمعروفة في وادي ظهر، لديهم مزارع عنب هناك، يشرف عليها العمّ الأكبر، كما أن لديهم أراضي قات في شبام كوكبان ملك لجد صالح من الأمّ، ويشرف عليها شقيق الأمّ الذي يسكن هناك. ومن خلال المعارف المشتركين تكوّنت معلومات طيبة عن صالح شجعت على التقدم خطوة في هذه الزيجة.

جاء موعد زيارة أمّ صالح (المعروفة بأمّ عبد الله) والذي صادف الخميس، ارتدت زينب ثوب أزرق داكن طويل تتجمع ورود بيضاء أسفله؛ وكذا أسفل أكمامه الطويلة؛ وله فتحة صدر على شكل الرقم السبعة، ولبستْ عقد صغير

أزرق أيضاً؛ وتركت شعرها الناعم مسترسلا خلفها يغطي ظهرها بالكامل، وضعتْ قليلا من الكحل وأحمر شفاه خفيف وانتظرت... سمعتْ فتح باب المنزل؛ ومن ثمّ أصوات الزائرات مع صوت أمّها ترحب بهن، تسارعت دقات قلبها خوفاً ورهبة وتوجساً، وشعرت أن الأحلام جميلة، ولكن مواجهتها يبدو مقلقا.

دخلت زينب المجلس وهي تتعثر بخجلها، وأسرعتْ بالجلوس بجانب أمّها بعد أن ألقت السلام على الجميع، فضحكت أمّها وهي تشير إلى خجل ابنتها ونسيانها السلام عليهن، فنهضت على إثر هذا الكلام؛ وسلمت على الحاضرات وكنّ أربع نساء، سميرة صديقة الخالة – وكانت زينب تعرفها–، وفتاة تبدو أصغر من زينب بالعمر؛ عرّفت نفسها أنها إشراق شقيقة صالح الصغرى؛ والاثنتان الأخيرتان إحداهن تبدو في الستين من العمر والأخرى تقترب من السبعين؛ ولم تعرف من فيهن أمّ صالح. وبمجرد عودة زينب لمكانها بجانب الأمّ؛ سمعت إحدى السيدات تقول:

- كيف تغيّرت فتيات هذه الأيام! لم نكن نضع الحكل في زمننا إلا بعد زواجنا، فضحكت الأمّ بارتباك وردت مؤيدة كلامها:
- نعم، تغيّر الجيل.

فتأكدت زينب أن المتحدثة هي أمّ عبد الله. وهذا هو أول لقاء لها معها. تأملتها وحاولت أن تسبر أغوارها، كان من الواضح أنها تقترب من السبعين؛ ولكنها كانت امرأة ذات بنية قوية، طويلة القامة، تدل ملامحها التي مر عليها

الزمن أنها كانت جميلة، ولاحظت زينب أن لها ابتسامة تعطي لوجهها بريقا حلوا مع أنها ابتسامة نادرة، حيث يلزم التجهم وجهها أغلب الوقت؛ وكأنها تتأهب لمعركة.

استمر الحديث بين الحاضرات، وتشعب إلى غلاء الحياة بسبب الحرب والحصار؛ وضرورة الاقتصاد في تكاليف الحياة، وأن المرأة الناجحة هي تلك التي تدير الأزمات بالحكمة والاجتهاد والتضحية. حاولت سميرة سحب الحديث إلى زينب فسألتها عن عملها، فأجابتها بكلمات قليلة بأنه جيد، فكان تعليق أمّ عبد الله بأنه من الضروري أيضاً أن يكون الراتب جيدا، لأن الحياة لم تعد تستقيم إلا بعمل الزوجين؛ ولم يعد من العدل تحميل الشباب هذه المسؤوليات بمفردهم، ثم تطرقت إلى كيفية قيام بعض النساء بمجهود كبير للعمل وإدارة البيت والمساعدة على ضروريات الحياة؛ ووجوب التضحية وتقدير الرجال الذين يكدون من أجلهن. ومهما تنوع الحديث بين الحاضرات كان لابد وأن يعود لموضوع العمة المفضل "ضرورة حرص الزوجة على راحة الزوج". شاركت زينب تارةً بكلمات قليلة تؤيد كلام العمة مجاملةً؛ وتارة تؤكد على ضرورة المشاركة بين الزوجين بشكل مناسب لطاقة وإمكانية كلٍ منهما.

انتهت الزيارة وغادرن المنزل؛ وغادرت معهن تلك البهجة والأحلام الوردية التي نسجتها زينب في خيالها، انكسر الحلم الوردي وشوّه حديث أمّ عبد الله

جمال الحلم في مخيّلة زينب، لم تكن زينب من خرجت من هذه الجلسة محبطة، فحتى أمّها عادت من توديعهن ودون محاولة لتجميل الواقع، وقالت:

- علينا أن نقرر عندما نتعرّف على صالح! كأنّه أتفاق على أن هذا اللقاء كان غير مريح.

انتهى ذلك اليوم بثقل غريب شعرت به زينب في قلبها، ولم تعرف كيف يُمكنها بكل هذا القلق اتخاذ قرار ستتوقف عليه حياتها كلها؟! ولكن عليها أن تتأنى؛ فربما الأمّ لم تُعجب بها، ربما لن تتم الخطوبة من الأساس! الغريب أنها حزنت لهذا الاحتمال؛ واحتارت فيما تريد أن يتحقق.

دخلت حجرتها، واستغرقت بالتفكير، صالح يبدو جيدا؛ ولكن ماذا عن الأسرة التي ستعيش معها؟ هل يجب أن تقبل زواجا مع معرفة كل هذه المخاطر التي قد تجعل منه زواجا فاشلا! الأمّ كما سمعتْ عنها وعرفتها، تشكّل مشكلة لا يمكن لها تجاهلها، إنها تعرف من صديقاتها المتزوجات أن للأم دوراً في حياة أولادهن حتى بعد الزواج؛ فكيف بأمّ سوف تسكن معها وستخضع لأوامرها؟ عليها التفكير جيدا فلا تجعل من فكرة الزواج غشاوة تحجب عنها الحقيقة.

كانت تعلم وتعي أن هناك ثلاث نسوة ستعيش معهن حتى لو مؤقتا غير الأمّ، وهنّ زوجات الأشقاء (جميلة وهدى)؛ والشقيقة إشراق، لا شك أن حياتها ستتأثر بحياتهن، ستتداخل، سيتشاركن نفس الظروف والأحداث، كانت زينب

تعي أنها ستعيش في بيت مزدحم، لا تملك القرار وحدها، فهناك أسرتان معها، إلى جانب الأخت والأمّ.

قطع عليها حبل أفكارها صوت باب المنزل يُفتح؛ عرفت أن أباها وزينة عادا من الخارج، اطفأت ضوء الحجرة حتى توحي لهم بأنها قد خلدت للنوم، مع أنه أبعد ما يمكن أن يكون عنها. عاشت في أفكارها، تحاول أن تتعرف على هذه العائلة المحتمل أن تعيش بينهم؛ ويصبحون لها ولأولادها أهل. بمجرد أن هدأت الحركة في المنزل، قامت بمهاتفة أختها زهرة– التي كانت تنتظر مكالمتها–؛ ولكن أمها –كما يبدو– كانت قد سبقتها وحدثتها بما كان عليه يومهما، تحدثت مع زهرة بما خالجها من خوف من الزواج من تلك العائلة التي يبدو تحكُم الأم فيها وسيطرتها على الجميع بيناً، كما أنها واضحة في طلباتها، زوجة تعمل في الخارج وتعمل في البيت وتحمل العبء الأكبر ولا تقصر في راحة ابنها وهذا هو الأهم. أخبرتها أختها أن عليها ألا تستعجل؛ فمن وجهة نظرها أن الزواج لا يستحق الهرولة إليه، وأن عليها التأني وعدم التسرع بالموافقة وطال بينهما الحديث إلى أن همست زهرة "جاء مازن". فأنهيا المكالمة؛ واكملت زينب السهر مع نفسها، وصورة صالح التي شاهدتها على الهاتف تملأ خيالها، "هل له من طباع أمّه الكثير؟ أم أنه مختلف؟ وهل ملامحه الهادئة تنم عن طباع هادئة أيضا؟" هكذا حاورت نفسها دون أن تجد إجابة.

*****

لم تكن زهرة شقيقة زينب سعيدة في زواجها؛ ليس لأن الإنجاب تأخر فحسب، ولكن لأن زوجها كان متعلقا بجلسات القات بدرجة كبيرة، ورفقة الأصدقاء ومشاهدة مباريات كرة القدم كذلك، لم يفرق بين حياته كشاب عازب وبين حياته عندما أصبح متزوجا، ينتهي من تناول طعام الغداء في المنزل في وقت مبكر؛ ويأخذ حزمة القات ويخرج، يقضي يومه في جلسات القات التي يتجهز لها من غسل القات ولفه جيدا الى تجهيز الثوب والتأكد من قارورة الماء وعلبه الدخان، وينطلق ولا يعود في الغالب إلا بعد التاسعة أو العاشرة ليلا. مع مرور أول سنة زواج، شعرت زهرة بفراغ كبير في حياتها، ولم يكن لزوجها وجود في تفاصيل حياتها، حديثهما فقط على مائدة الغداء، يشاركها بعضاً من أخباره، وتحدّثه عما حدث في عملها، ولكنها أبدا لم تكن تشعر أنه يتابعها، وكم من مرة تقصّ عليه إحدى مشاكلها في العمل؛ فلا يعود ويسأل ولا يبدو أنه متذكر ما حدث حتى يسأل عمّا أُستجد! لم تكن زهرة من رواد جلسات القات النسائية، ولكنها كانت تذهب أحيانا– في الغالب يوم الخميس– فقط للجلوس مع صديقاتها، ولكسر روتين حياتها، وتبادل الأحاديث وقضاء وقت كان هو المتنفس لها، ولكنها سرعان ما تنزعج إذا بدأ الحديث عن الأطفال ومشاكلهم ورعايتهم؛ فلا تجد ما تشارك فيه، ويصبح الحديث حساسا بالنسبة لها ومزعجا، رغم أن الفحوصات الطبية لم تُظهر أي مشكلة تمنعها من الحمل، ولم يوافق مازن على إجراء أي فحص بحجة أن الوقت مبكر جدا على القلق.

كان اليوم التالي هو يوم الجمعة؛ اليوم الذي تجتمع فيه أسرة عبد القادر لتناول طعام الغداء معا، جاءت زهرة مبكرة دون مازن الذي يخصص الجمعة لتناول الطعام في منزل أهله. جلست زهرة وزينب في حجرتهما يتبادلان الحديث حول أسرة صالح، قاطعتهما الأمّ بدخولها وجلوسها بحافة السرير الشاغر (سرير زهرة سابقا)؛ وسؤالها لزهرة عن رأيها بموضوع الخطوبة، فلم ترد إلا بكلمة "لا أعلم"؛ لأنها بالفعل لم تكن تعلم بما عليها أن تنصح شقيقتها. أخبرتهما الأمّ أنها تواصلت مع سميرة التي أبلغتها أن أمّ عبد الله فعلا إنسانة صعبة ومتحكّمة؛ لذا فمن الأفضل أن يطلبوا سكنا مستقلا. وعلّقت الأمّ عن تغيُر مقاييس الخطوبة ومواصفات العروس بعد الحرب، فقد كانت الفتاة غير الجامعية أو على الأقل غير الموظفة هي المطلوبة للزواج من قِبل أمهات الشباب، أمّا الآن ومع ظروف الحياة القاسية أصبحت الموظفة مطلوبة أكثر. ثمّ عادت لسؤال زهرة عن أخبارها، فلم ترد وأكتفت بتنهيدة، فكررت الأمّ السؤال بإصرار، فردت زهرة:

- لا جديد يا أمي، ما زالت عمتي (أمّ زوجها) تكرر سؤالها عن الحمل، وما زال مازن يعتبر الموضوع غير مهم، ولم يحن الوقت بعد للقلق.

قالت الأمّ بعصبية:

- إذا كانت أمّ مازن مهتمة بالحمل؛ فلتجبر ابنها على عمل الفحوصات، قد تكون المشكلة بسيطة ويمكن حلها.

ردت زهرة وهي تضحك بتهكم:

- أنها لا تتوقع ولو بنسبة بسيطة، أن تكون المشكلة من ابنها، وقد قالت ذات مرة ووصل لي الكلام، فلنزوج مازن بأخرى ونتأكد من هو سبب المشكلة.

صاحت الأمّ:

- هذا ما أتوقعه منها، عليكِ بإجبار مازن على عمل الفحوصات.

ردت زهرة بحزم:

- لا، طالما لا يريد لن أجبره.

قالت زينب مقترحة:

- زهرة لو ظهرت المشكلة من مازن لِما لا تفكرين بتبني ...، وقبل أن تكمل عبارتها، قاطعتها أمّها همسا وبفزع:

- لا أريد ان أسمع هذا الكلام، حاذري أن تدخليه في عقل أختكِ! لن يوافق أحد على التبني وستعطين مبرر لأم مازن بالبحث عن عروس جديد لابنها إذا شاعت الفكرة.

استغربت زينب من غضب أمها ومن حديثها الهامس كأنه موضوع عيب؛ فقالت:

- ولكن التبني خير يا أمّي.

ردت الأم بصوت حاد وعالٍ هذه المرة:

- أغلقي الموضوع لا شأن لي بكونه خير أم لا، التبني غير مألوف في بلادنا، لا تعيدي ذكر الموضوع.

قطع حديثهن وصول زيد وزوجته نهاد وطفلهما قيس الذي له من العمر ثلاث سنوات؛ وهو أجمل ما تمتلكه الأسرة، حيوي ومرح ويُضفي على جلساتهم نكهة السعادة ويحظى بحبِّ الجميع دون منافس. فخرجن لاستقبالهم وأحضرت نهاد طبق مشاركة بمكونات المائدة. كانت نهاد حامل بطفلها الثاني في شهرها الخامس، ولكنها امرأة تتمتع بصحة جيدة، ولا تُعرف بحملها إلا لبروز بطنها بشكل خفيف.

لاحظت زينب أن حديثاً جانبياً طويلاً دار بين أبيها وزيد على غير العادة، شعرت من خلاله أن الأب غير مرتاح للعائلة كما بالتأكيد وصفتها له أمها، وأنه ربما يستشير زيد بخصوص الموضوع. تناولت الأسرة طعام الغداء وسط الأحاديث العامة والجانبية مع مشاركة الصغير قيس، ومحاولته الاستحواذ على اهتمام الجميع، وكان له ما أراد.

*****

عادت زينب للعمل، وانتظر الجميع طلب صالح لزيارة التعارف، مرّت الأيام والخوف يتسلل إلى قلب زينب، ماذا لو لم تُعجب بها أمّ عبد الله؟! ماذا لو عزفوا عن هذه الخطبة؟ لن تكون المشكلة بتعثر رغبتها بالزواج وتأسيس أسرة ولكن سيكون إحراجا أمام أهلها، عليها أن تتجهز لكل الاحتمالات. ورغم مرور الأيام

حرصت الأمّ على عدم الاستعجال بسؤال سميرة (والتي كانت تعرفها كصديقة لشقيقتها)، وأظهرت اللامبالاة. وهكذا مر أسبوعان قبل أن تهاتف سميرة الأمّ، وتبلغها بأن صالح يرغب بزيارة تعارف، فرحت زينب لحصولها على قبول من الأمّ، وبنفس الوقت عاد قلبها للاضطراب، وشعرت بخوف وقلق "ماذا عن رأي صالح؟" خاصة أنها أول مرة تقابل شاب في حياتها.

درست زينب في مدارس بنات، مرت فترة المراهقة مع صديقاتها بالحديث عن جار أو صديق أخ وقع نظر إحداهن عليه، فينسجنْ الأحلام ويضِفنْ الكثير من النكت ويقضِنْ أوقاتهن بالتهريج، لم تدخل زينب بأي علاقة ولا أي من صديقاتها المقربات. وحتى الجامعة كانت خاصة بالفتيات فقط، تسربت أغلب صديقاتها من الجامعة بالزواج، وتمسكت بعضهن بالجامعة برغم الزواج، وأنهت زينب دراستها واشتغلت ولم يتقدم لها إلا رجلٌ يريدها زوجة ثانية؛ فرفض الأب دون حتى إعلامها بذلك، ولكنها عرفت من أمّها بعدها بفترة.

ما زالت زينب تتذكر أول خفقة قلب أحسّت بها عندما كانت لا تزال في الجامعة ووقع نظرها من نافذة حجرتها على ابن جارهم في المنزل المقابل، كانت أمّه امرأة جميلة روسية الأصل، فأخذ الشاب من أمّه الجمال وبياض البشرة وكان فارع الطول، وشعره ناعم غزير بني اللون، بالمختصر كان شابا جميلا جدا يقارب العشرين من العمر، فتعلقت به زينب كثيرا؛ وواظبت على رؤيته من النافذة كلما سمعت صوت عجلات سيارته تدخل الحارة؛ فتسرع نحو النافذة وتراقبه متخفية

خلف الستارة. لم يكن هناك أي فرصة لتحاول أن تلفت نظره، كانت قد ارتدت النقاب وقتها، فإذا ما صادف خروجها من المنزل وجوده أمام منزله (حدث ذلك عدة مرات)، ما كان يمكن لها أن تلفت نظره وسط السواد الذي كانت تلبسه. لم يطل إعجاب زينب بهذا الشاب وقتا طويل، فقد نشبت الحرب على حين غفلة من الزمن، ففرّت الأسرة بعد اندلا ع الحرب بفترة قصيرة ولم تعرف متى؟ ولا إلى أين رحلوا؟ تذكرت كم كانت تبكي في تلك الأيام عندما تنظر إلى منزلهم الخالي، وسيارته التي كانت دائمة النظافة، رابضة داخل حوش المنزل يعلوها الغبار، وعاشت حزن خفي لامس قلبها البكر؛ وأخفت هذا السر على جميع صديقاتها ما عدا صديقتها المقربة منال؛ وكذلك شاركته مع أختها زهرة عندما سافر الشاب؛ وقصّت عليها شعورها وحزنها البالغ ووحشة البيت المهجور من أصحابه، واستها أختها وشاركتها الحزن على كل ما يحدث حولهن من رحيل الأسر والأطلال التي خلفتها الصواريخ والموت الذي يرفرف حولهم جميعا.

الزواج بالنسبة لزينب كان هاجسا منذ أن تخرجت من الجامعة؛ وبدأت أغلب صديقاتها بالزواج واحدة إثر الأخرى، شعرت أن هذا هو المسار الطبيعي للفتيات، هكذا تفهم عن الحياة وهكذا تعلمت، ليس من أمّها فحسب إنما من كل من هم حولها، كانت زينب تحلم أن تمتلك عائلة أكثر من موضوع الحبّ ووجود شاب في حياتها، رغم تحذير زهرة لزينب أن تتأنى بالتفكير واتخاذ القرار؛ وألا تضع للزواج هذا الاعتبار الكبير حتى تستطيع أن تحكم على صالح بحيادية،

ولكن زينب اعتبرت طلب صالح للقاء التعارف هو بمثابة إعلان موافقة الأمّ عليها وهذا وحده يكفي في الوقت الحالي.

لم يكن على زينب التجهز لمقابلة صالح، فقد ألزمها أبوها –كما ألزم زهرة من قبل– بأن عليها ارتداء العباية والحجاب وعدم وضع أي شيء على وجهها للتجميل، ولذا لم يكن هناك أي استعداد لمقابلة الخطيب كما شاهدتها في الأفلام والمسلسلات. كان الاتفاق أن يتم اللقاء بوجود الأسرة، ثمّ يمكن لزينب وصالح قضاء بعض الوقت بمفردهما في ذات اللقاء.

*****

وصل صالح برفقة شقيقته إشراق، استقبل الأب والأم الضيوف؛ وخفق قلب زينب عند رؤية صالح أمامها؛ والذي وصل وبيده ورد جميل؛ قدّمه لها دون أن يمدّ يده للسلام. جاء صالح مرتديا بنطال رمادي مع قميص أبيض، تاركا الزر أسفل الرقبة مفتوح، شعره أسود ناعم مُسرّح بشكل جيد. جاء مهندماً بشكل جميل، بينما زينب ارتدت عبايتها السوداء وحجاب رمادي. جلس الجميع في الصالة العائلية كما فضّل الأب، وليس في المجلس حيث الجلسة الأرضية، قدّمت الأمّ الشاي والكعك؛ وتبادل الأب مع صالح الحديث عن عمله في شركة الاتصالات، وعندما أخبره الأب أن زينب أيضا خريجة محاسبة بامتياز؛ نظر صالح إليها مباشرة وقال "ما شاء الله"؛ فتدفق الدم إلى وجهها وشعرت بخفقان قلبها

حتى خشيت أن يُسمع! وبعد وقت قصير وقف الأب مغادراً لصلاة المغرب؛ ونهضت الأمّ قائلة لإشراق أن تأتي معها لتتعرف على زينة.

وهكذا وجدت زينب نفسها معه بمفردهما. بمجرد خروجهم بدأ حديثه مع زينب بطلاقة وثقة؛ سألها عن العمل ولِما لم تعمل بالمحاسبة، فردت أن العمل جيد؛ وأنها لم تجد عملاً في مجال المحاسبة ولم تبحث كثيراً، سألته عن رقم دفعته؛ فاكتشفا أساتذة مشتركين؛ تبادلا الحديث عنهم. لم تكن زينب تلقي نظرها عليه أثناء الحديث إلا ثوانٍ؛ ثمّ تعود وتنشغل بالنظر إلى أسفل متجنبةً إطالة النظر إليه، بينما كان هو موجها نظره إليها طوال الوقت؛ وكأنه يريد طبع صورتها في ذهنه؛ حتى يتمكن من استرجاعها وتأمُّلها فيما بعد. حدّثها عن عمله وعن تقدير مديره له؛ ووعده له بترقية قريبا؛ وعن اعتماد زملائه عليه بشكل كبير. مرت لحظات صمت بينهما؛ وكانت زينب تنظر إليه عندما يسأل سؤال؛ وتعود وتنظر أمامها عندما ترد. وفجأة سمعته يقول: "زينب لماذا لا تنظرين إليّ؟" فخفق قلبها بشدة؛ رفعت وجهها إليه فشاهدت ابتسامته تتسع؛ وهو ينظر إليها وقبل أن ترد كان صوت أمها مع اشراق يقترب وهنّ يتبادلن الحديث، نهض صالح بمجرد قدومهن؛ وودعهما وخرج مع شقيقته.

*****

غادرت زينب الصالة إلى حجرتها، ولحقتها زينة؛ بينما ذهبت الأمّ إلى حجرتها. انهالت زينة على شقيقتها بالأسئلة عن شعورها وانطباعاتها؟ لم تكن

زينب قد هدأت من انفعالها بعد، فاختصرت لها الأمر وقالت لها "لا أستطيع أن أعطي إجابة شافية بعد"، فانتقلت زينة إلى ما يخصها؛ فسردت عليها بحماس ما وجدته في أخته إشراق؛ فهي فتاة لطيفة ومتفتحة العقل؛ تؤمن بضرورة إعطاء النساء بعض من الحريات والتخلص من العادات البالية التي تُقيّد حياتهن، تحدّثت زينة كثيراً عن إشراق وطموحاتها ودراستها للطب، ولكن زينب وجدت صعوبة في متابعة حديثها، كان عقلها قد توقف عند نظراته إليها وهمسه " زينب لماذا لا تنظرين إلي". أخيرا سكتت زينة؛ وقد شعرت بأن ما تقوله لا يهم زينب– على الأقل الآن–، طبعت قبلة سريعة على خدها؛ وغادرت وهي تتمنى لها ليلة سعيدة.

ارتدت زينب ملابس النوم؛ واستلقت على فراشها؛ وتركت اللقطات القليلة تمر المرة تلو المرة من أمام عينيها، باقة الورد؛ الحديث عن الأساتذة؛ ومن ثمّ الهمس " زينب لماذا لا تنظرين إليّ!"، أدخلت صالح مباشرة إلى أحلامها عن الأسرة التي تطمح لامتلاكها يوما ما، أجلسته بجانبها وأمامهما يلعب طفلان وهما يجارونهما في لعبهما، جعلته ينظر إليها تلك النظرة عدة مرات؛ وهو يوزعها بينها وبين أطفالهما، "صالح" هكذا لفظت اسمه همسا؛ وقررت أن تعمل على ألا تخسره.

شعرت زينب بالجوع وذهبت للمطبخ لعمل شطيرة، فقد تذكرت أنها لم تتناول من الطعام إلا القليل في وجبة الغداء. مشت حافية حريصة على ألا توقظ

أحدًا، وقبل أن تنزل الدرج إلى المطبخ، سمعت حديث والديها وهما خارجين من حجرتهما. سمعت أمّها تقول بصوت غاضب:

- لقد أخبرتك عدة مرات لا تحملني مسؤولية قبول زهرة لمازن، لم أصرّ عليها، وهل ما علمنا عنه أنه مولع بتناول القات يمكن أن يُتوقع أن يكون عيبًا كبيرًا! كل الشباب وأغلبنا بشكل عام نتناول القات يوميًا، فلِما نعتبر مازن مدمن قات؟

همس الأب مجيبًا عليها:

- لا يا ليلى، إذا كان لجلسات القات الأولوية فهو إدمان، إذا كان الزوج لا يعطي من وقته لأسرته على حساب جلسات القات فهو إدمان.

عادت أمّها تقول بصوت حزين:

- لو حظيت بطفل لشغلها عن مازن.

رد الأب:

- ليس هذا هو الحل، يا ليلى. إنه عمر بأكمله؛ يجب أن يكون للأب دور ووجود كبير في حياة أسرته، بالعكس، قد يزيد وجود الطفل وما يتطلبه من اهتمام من تفاقم المشكلة.
- لقد تعمدت أن أسال زينب أمامك حتى لا يأتي يوم وتقول إني أجبرتها.
- لم أقل هذا؛ فلندعو الله أن يكون صالح شخص جيد؛ وهذا نصيب وقدر.

عادت زينب لحجرتها وقد فقدت شهيتها للطعام، تعرف مشكلة زهرة فهي تقصّ عليها كل شيء، ولكن الحديث الذي سمعته جعلها تفكر "كم كانت زهرة سعيدة بالخطوبة وفرحة بمازن! إن الصورة التي ننسجها بخيالنا ليست ما نعيشها فعلا، الكثير من البشر والأحداث تتدخل لتشكيلها بشكل مغاير لأحلامنا"، ولكن بالتأكيد – فكرت زينب– "سأتحمل أنا هذا العبء، حتى لو لم أدرك واستوعب العقبات الواضحة من الآن".

*****

(2)

زهرة شقيقة زينب أجمل أخواتها، كل شيء فيها جميل، الملامح، الشعر، الطول والرشاقة، حلوة الطباع، متفائلة رغم كل ظروف الحرب والصراعات التي تعيشها البلد، إلا أنها فقدت حماسها للحياة بعد أول عام لها في الزواج. لم يكن مازن شابا وسيما، كان طويل القامة، نحيل الجسم، خفيف الشعر، ملامحه دقيقة وعينيه ضيقة تكاد تكون مغلقة عندما يبتسم أو يضحك، أكثر ما يعيبه هو وجنتاه الغائرتان ولكنه حلو الحديث، مرح، يحمل في جعبته الكثير من النوادر والحكايات، فكانت مجالسته ممتعة. له شخصية طفل يجد ما يسليه هو الأهم تاركا المسؤوليات للآخرين. ولأنه يعمل في معرض أبيه كان يغادر العمل مبكرا، ويذهب للمنزل لتناول طعام الغداء والمغادرة فورا لجلسات القات. كسر مازن توقعات زهرة عن الأسرة والرفقة ومشاركة الأحلام، شكْت لأمها إهمال مازن لها، وتحدّثت أكثر عن مشاعرها وانكسار أحلامها لشقيقتها زينب، بكت كثيرا ولم تعرف أين الخلل؟ كان مازن يعاملها بلطف؛ وهو بشكل عام هادئ الطباع لا يختلق المشاكل ولا يحبّها ويستصعب حلها، يوفر كل ما يحتاجه المنزل؛ ولكن لم يكن يعطي لها مساحة من وقته، هل هذه هي الحياة الزوجية؟ هل هذه هي الأسرة؟ صبّت غضبها على أي موقف بسيط يحدث لها في العمل، فخسرت عدة أعمال كانت قد التحقت بها. عندما لم تجد حلا لمشكلتها توقفت عن الشكوى لأمها، وشاركت زينب همومها كلما اجتمعا على انفراد.

كانت زهرة تمر بحيرة ومرحلة صعبة؛ لا تدري كيف يمر يومها، وكان من الضروري أن تجد حلا، فلم يعُد ما تعيشه مقبولاً، ماذا تنتظر؟ هل تنتظر طفلاً؟ وماذا إذا لم يأتِ؟ هل تنتظر أن يتغير مازن؟ وماذا إذا لم يتغير؟ يجب أن تجد لنفسها حلاً، يُمكّنها من أن تعيش حياةً أفضل؛ وعندها يمكن أن تنتظر ما يأتي به قدرها. وبعد طول تفكير؛ وبعد حوار خاص مع إحدى صديقاتها وتشاورها مع أختها زينب؛ طلبت من العائلة يوم اجتماعهم – يوم الجمعة– أن يجتمعوا في الصالة؛ لأنها تود طرح موضوع عليهم، بدأت حديثها قائلة:

- لقد قررت، سوف أدرس ماجستير؛ وسأتفرغ من العمل لمدة عامين.

كانت زينب على علم بالموضوع؛ أما الأمّ فلم تستوعب الموضوع؛ واعتبرته هروب من واقع عليها مجابهته وحله، فعلّقت قائلة:

- ولِما عليكِ عمل هذا؟ الأهم الآن أن يتم اقناع مازن بوجوب عمل فحوصات؛ ولو تطلّب الأمر السفر إلى مصر إذا كان يخشى أن يتحدث الناس من حوله عن احتمالات أن يكون هو العاجز عن الإنجاب.

لم تقتنع زهرة؛ وردتْ على أمها:

- لن أفرض عليه ما لا يرغب به، وهو حر في عمل هذه الفحوصات؛ وأنا حرة بتقبُّل ذلك من عدمه؛ ولكني لن أجبره مطلقا. وأكملت زهرة:
- سأتفرغ للدراسة؛ وسأسعى لبناء حياة خاصة بي حتى لا أجد نفسي غارقة في هموم لن تنحل.

أخذ الأب جانب الحياد؛ ولكن نظراته أيّدت زهرة وصرّحت زينب برأيها قائلة:

- إن زهرة على حق؛ والأطفال ليسوا كل شيء. وماذا إذا ظهر العيب من مازن أو منها؛ هل عليهما الانفصال؟

فصرخت الأمّ على زينب ونهتها عن توقُّع الشر. لم يطول النقاش أكثر من ذلك؛ فقد وضعت زهرة ورقة التسجيل في الجامعة على الطاولة وغادرت. فعرفت الأسرة أنها اتخذت القرار وما جاءت إلا لتبليغهم. عادت زينب إلى حجرتها، وهي تسمع أمّها تقول للأب:

- لِما أنت صامتٌ هكذا؟ هل تجدها على حق؟ هل أبلغتْ مازن بالموضوع؟ أم أنها لم تعُد تعتبره موجودا!

- دعيها فالعلم نور. رد الأب بصوت حاسم.

*****

(3)

دخل صالح حجرة والدته، وهو يُحضّر بخياله ما يرد به على السؤال المتوقع، وبالفعل بمجرد أن دخل؛ سألته أمّه:

- **صالح، أخبرني هل أعجبتك زينب؟ هل شعرت أنها فتاة مناسبة لك؟ سألت الأم ابنها وهي تنظر إليه مبتسمة.**
- **لا بأس بها، وإن كنت تفاجأت أنها درست محاسبة! لم أعلم بذلك. رد صالح باستغراب.**

جاوبته الأمّ:

- **لم يخبرونا؛ لقد قالوا إنها تعمل في السكرتاريا.**
- **غير مهم ربما ستترك العمل عند الزواج.**
- **لا، لِما عليها عمل ذلك؟!! لا يا ابني أن عمل الزوجة في هذه الظروف داعم مهم؛ فالحياة لم تعُد تستقيم بعمل الزوج فقط؛ وطالما هي مؤهلة فلتعمل، عليك بتشجيعها على الاستمرار بالعمل.**
- **خير بإذن الله. أنهى صالح حديثه مع أمّه.**

صالح شاب في الثلاثين من العمر، معتز بنفسه كثيرا، تخرّج من قسم المحاسبة بامتياز؛ وحصل على عمل بعد شهور من تخرّجه في شركة اتصالات، لم يُفكر بالزواج لفترة طويلة، قلّل من شأن كثير من المرشحات ولم يقبل حتى أن يلتقي بأيٍ منهن. قضى وقته في العمل ورفقة أصدقائه في مجالس القات، ظروف البلد

جعلته يخشى مسؤولية الزواج. وهكذا مرت عدة سنوات منذ تخرجه ولم يتزوج بعد كما كان الحال بالنسبة لإخوته، الذين تزوجوا بعد التخرج مباشرة. عندما طلبت الأم من سميرة– زوجة شقيقه الأكبر– البحث له عن عروس؛ رشحت له زينب –إذ لم تعُد تذهب للأعراس والاجتماعات النسائية–. وهذه المرة شعر أن عليه أخذ الموضوع بجدية؛ فقد حضر أعراس كافة أصدقائه؛ وصار من الضروري أن يقرر بشأن هذا الموضوع. كان في خياله عن زوجة المستقبل صفات كثيرة، جميلة جدا، بيضاء، طويلة، ماهرة في أعمال المنزل، صبورة، وتنجب له عددا من الأولاد. وافق على مقابلة زينب، بعد أن شاهد صورة لها، لم تكن كالفتاة التي في خياله، ولكن كافة أصدقائه أخبروه أن الأحلام والواقع مختلفان؛ فرضخ ووافق على التعارف. وعندما تم التعارف؛ استغرب صالح من نفسه أن وجد زينب تلامس قلبه من أول لقاء، لم يتعارف بشكل خاص مع أي فتاة من قبل، لذا شعر شعور غريب أن يقابل فتاة ربما بعد بضعة أشهر قد تصبح زوجته.

*****

توالت الأيام، واستجد من الأحداث ما جعل خطوبة زينب الرسمية تتراجع إلى الوراء من اهتمام الأسرة، حيث توفت الجدة (أمّ الأب)، وفور وصول الخبر لهم سافروا جميعهم ما عدا زهرة إلى (مدينة ذمار) حيث بيت الجد، ذمار هي مدينة الأب التي عاش فيها فترة الطفولة وباكورة الشباب؛ وعندما غادرها لدخول الجامعة في مدينة صنعاء، استقر فيها وأسس أسرته، وسكن في البيت الذي بناه والده حتى تستطيع الأسرة قضاء أوقات هناك.

مرّت السيارة التي تقلهم فوق جبال شاهقة، وفي أسفلها وديان تحتضن قرى عديدة. لم يكن زيد مسرعا بقيادته؛ فوصلوا بعد ساعة ونص– قاربت الساعة الواحدة ظهرا عند وصولهم. كان دار الجد كبيراً مبنياً بالحجر، نوافذه تتوّجها القمريات الملونة، وباب الدار حديدي كبير. الدار مكوّن من ثلاثة طوابق شاهقة، الطابق الأول كان مسكن الجدة مع معاونة لها، والطوابق العليا أحدهما لابنها الأكبر مع أسرته، والثالث لابنتها الأرملة مع أولادها. وخُصص السطح لحجرة المخزن وغرفة الخبر بالطابون، وتم رفع جدار السطح، فصار ما تبقى منه ملعب للأطفال (الأحفاد).

عندما وصلوا إلى المنزل سارعت شقيقات الأب لملاقاتهم وعلا البكاء والعويل وهنّ يسلمن على شقيقهن، فانهمرت الدموع من عيني الأب الذي كان حريصا أن يظهر متماسكاً وقوياً؛ ولكن الحزن ولقاء الأخوات أفقده تحكُمه، وترك لدموعه حرية التعبير. الجميع شارك في البكاء والنحيب، فجاء على إثر

هذا الضجيج الشقيق الأكبر، ينهر الجميع على هذا النحيب، ويطلب منهم الهدوء؛ فهذا النحيب لا يجوز. هدأت الأصوات الباكية؛ وذهب الجميع إلى المجلس العائلي، وبدأ الأخ يتحدث عن ترتيبات الجنازة والعزاء وغيرها من الأمور؛ وأشار إلى وصية المتوفية بتوزيع الطعام واللحوم والصدقة على الحارات الفقيرة، التي كانت الأمّ ترعاهم دائما، وأوكل العمّ هذه المهمة لابنه – حرصا على تنفيذها بشكل جيد–، وشاركه زيد المهمة.

قرر أولاد الجدة إقامة ثلاثة أيام لاستقبال العزاء من الرجال؛ بينما تقرر العزاء للنساء أربعين يوما. تعاون الجميع رغم حزنهم على خدمة المعزيات، وتقديم وجبات الطعام للمقيمات في المنزل؛ اللاتي حضرنْ من مناطق مختلفة، وظل القرآن يُتلى طوال اليوم. لم يتوقف تدفق النساء المتشحات بالسواد على بيت العزاء، مجموعات وفرادى، منهن من تبقى قليلاً وترحل تاركة حيّزاً للقادمات الأخريات، ومنهن من تأخذ مكانا ثابتا، وتبدأ بتناول القات وتصيح بالمرأة التي تقدم القهوة بإعطائها فنجانا آخر؛ وهي لا تنسى أن تمسح عينيها الباكيتين بالمناديل الورقية التي تجمّعت أمامها. كانت الجدة محبوبة جدا، سخية ومحبّة للخير، لها أفضال على كثير من الأسر الفقيرة، فكان من الحضور عدد كبير من النساء الفقيرات، واللاتي افترشن المدخل مع أطفالهن الصغار وقد اختلط بكاؤهن بالدعاء؛ وذكر أفضال الجدة التي لم تكن تُفصح عنها بشكل صريح؛ ولا تتفاخر بعمل الخير، ولكن الخير بالطبع له أثرٌ يظهر على أي حال.

لم تكن علاقة زينب بجدتها قوية، فقد اقتصرت زياراتها لها في مناسبات متفرقة؛ وفي الغالب أيام الأعياد مثل (عيد الفطر وعيد الأضحى). كانت الجدة متقدمة في العمر تجاوزت الثمانين، ولكنها كانت قوية، وظلت معتمدة على نفسها حتى أعاقها المرض الأخير، الذي كان سريعا؛ فرحلت قبل أن يتمكن الجميع من توديعها. لها من الأولاد ثلاث بنات، البنت الكبرى أرملة تعيش معها في نفس البيت، والأخريات يسكنان في ذمار أيضا في مساكن مستقلة. واثنان من الأبناء، الابن الأكبر يعيش معها في نفس البيت، والآخر (والد زينب) في صنعاء.

بعثت تلاوة القران السكينة في قلب زينب، ومنحتها هدوءً في أعماقها، وبهتت تلك الصور التي عاشت الأيام الماضية في رسمها، وخف قلقها من ضرورة اتخاذ القرار، ولم يخفق قلبها لذكرى ابتسامة صالح، تأملت الحياة والموت وشعرت أن الحياة لها جوانب كثيرة! وأن ما نحلم به اليوم قد يكون السبب في تعاستنا غدا! وأنها أقدار، وإن اعتقدنا أننا نملك القرار فيها، فلن نختار إلا ما هو مكتوب لنا.

*****

أُقيم العزاء لمدة أربعين يوما في ذمار، ولكن أسرة زينب عادت بعد انقضاء الثلاثة الأيام الأولى له، وبمجرد وصولهم إلى صنعاء، أعلنت ليلى (أم زينب) أنها ستقيم يوما واحد فقط لعزاء النساء في بيتها على اعتبار أن الجدة لم تكن معروفة

في هذا المحيط. جاءت والدة صالح وخالته التي حضرت المرة السابقة، وكذلك إشراق وسميرة، ولأول مرة حضرن زوجات الأبناء جميلة وهدى. شعرت زينب أنها محط أنظارهن، فقد كانتا يتفحصانها بشكل واضح، فيه الكثير من الفضول، دون مراعاة للذوق ولا للعزاء، لم تطمئن لنظراتهن المسلّطة عليها، حاولت أن تكوّن انطباع عنهن فلم تُوفق إلا أنهن – من وجهة نظرها– غير مهذبات.

تربعت قارئة القران مع مرافقتها الشابة في أحد زوايا المجلس وأمامها ثلاث ربط من القات؛ وبدأت بتلاوة القرآن؛ وساد الصمت إلا من همس هنا وهناك. وقامت زينب وزينة بتقديم قهوة القشر؛ واستدعت الأمّ امرأة لإعداد القهوة كلما نفدت والمساعدة في توزيعها، كان اللون الأسود سيد المجلس. ولأن الجدة غير معروفة لدى الحاضرات؛ فقد جرت الأحاديث الجانبية متسائلة عن (أمّ عبد الله) بفضول واستغراب من تكون هي ومرافقاتها، ولكن قارئة القرآن اسكتتهن وذكرتهن بضرورة حسن الاستماع للقرآن وأخذ الوعظ والتفكر بالموت، فساد الصمت فترة ثم عادت الأحاديث ثانيةً، وهكذا. حدثت زينب نفسها "أحسنت أمي أن جعلت العزاء يوما واحدا فقط".

ذهبتُ زينب إلى المطبخ لأخذِ مزيدٍ من فناجين القهوة، فلحقت بها إشراق وهمست مبتسمة "لقد أَغرم بكِ أخي"! ارتعشت يد زينب، وتدفق الدم إلى وجهها، وتسارعت نبضات قلبها، فتراقصت أكواب القهوة على الصينية، فأخذتها منها إشراق وهي تضحك وذهبت لتوزيعها، بينما عاشت زينب وهجاً

غريباً. عادت إلى مجلس العزاء وهي تشعر بالخجل، لأن بذور الفرحة تنمو داخل قلبها. نظرت إليها إشراق الجالسة بجانب زينة فابتسمت لها ابتسامة صافية؛ وعادت لحديثها الهامس مع زينة. كان واضحا أن زينة وجدت أخيرا صديقة توافقها في طموحها وأفكارها، وتشاركها عالمها المغلق. أنهت قارئة القرآن تلاوتها؛ وأعطت الميكرفون لمرافقتها التي بدأت تعطي درسا سريعا عن الموت والآخرة وثواب العمل الصالح، وبعد ذلك قامت قارئة القرآن بالدعاء للمتوفية. اقتربت الساعة من وقت صلاة المغرب، وبدأت أغلب النساء بالمغادرة، عندها ظهرت زهرة، استقبلت التعازي من المغادرات ومن ضمنهن عائلة صالح وقد عرّفت سميرة بزهرة وعرفتها عليهن، بعد ذلك دخلت زهرة للسلام على الباقيات ثمّ غادرت المجلس إلى الداخل. شعرت زينب بارتياح لمغادرة أهل صالح، واستغربت هذا الشعور؛ ومن المفترضِ أنها ستعيش معهن مستقبلا.

غادرت قارئة القرآن مع مرافقتها الشابة بعد أن أخذت أتعابها وهي تواصل دعاءها للجدة، فرشت الأمّ سجادات الصلاة لمن تبقى في المجلس، وهنّ صديقات الأمّ المقربات، وانصرفت زينب وزينة إلى حجراتهن.

ذهبت زينب إلى حجرتها، فوجدت زهرة جالسة على سريرها القديم؛ وقد فرشته بالكتب تستذكر دروسها، قالت لزينب دون أن ترفع نظرها عن كتبها:

- لم أطمئن لهن كلهن ما عدا إشراق تبدو طبيعية.

لم تعلق زينب فهي أيضا لم تطمئن لهن، اقتربت زينب من زهرة واستلقت بجانبها غير عابئة بالكتب التي تساقطت على الأرض وقالت لها هامسة بفرح:

- أخبرتني اشراق أنه معجبا بي (لم تقل مغرما خجلا).

ضمّتها زهرة إليها، وقالت:

- ومن لا يُعجب بكِ!

نظرت زهرة لشقيقتها بحنان؛ وقالت:

- لا اعتبر تجربتي بالزواج مثال يمكن لي أن اشجعك عليه، ولكن لكل منا تجربتها المختلفة، لا تقيسي علي، ولكن لا تتسرعي! فكري، ولا تنسي صالح ليس الشاب الأخير المتاح.

ردت زينب:

- لا أدري لماذا أشعر أنه الشاب الأخير الذي سيتقدم لي، لا أدري لماذا؟ أعرف معاناتكِ، وآمل أن تتغير ظروفك، طباع مازن ليست سيئة، تحتاج تغيير بسيط ربما سيأتي يوما ما ويتغير.

ردت زهرة وهي تعيد نظرها للكتاب:

- ربما.

بقتا على حالهن، زهرة تستذكر دروسها، وزينب بجانبها تعيش أحلامها. سمعتا صوت أبيهن فعرفن أن ضيوف أمّهما قد رحلنْ، نهضتا بسرعة، جمّعت زهرة كتبها من على السرير وتلك التي سقطت على الأرض ووضعتهن في

حقيبتها، وأسرعت لملاقاة الأب لتعزيته، بينما ذهبت زينب للمساعدة في تنظيف المجلس. قبّلت زهرة وجنتي أبيها وهي تعزيّه، وهمست له بشيء في إذنه، وعادت للمساعدة في التنظيف، تنبهت زينب أن زهرة قد تركت المساعدة لا تدري متى، ولكنها اكتشفت أنها بقيت في حجرة الأب وقتا طويلا، ثم غادرت دون أن توافق على البقاء لتناول العشاء.

*****

تعلم زينب أنها –في النهاية– ستوافق على الخطبة، أنها بعمر الزواج وصالح يبدو شابا جيدا، "إن الزواج سنة الحياة، وعليّ الموافقة". هكذا حدثت زينب نفسها وسط الصراع التي تعيشه منذ أن ظهر أمر هذه الخطوبة، أو بدقة أكثر منذ أن تعرّفت على أمّ صالح. عليها أن توافق وتخوض التجربة، كان هذا قرارها ولكنها لم تكن متأكدة من صحته، تعرف أنها أحبّت صالح، وأن ارتياحا متبادلاً قد نشأ بينهما وهي تشعر به؛ فماذا تريد أكثر من ذلك؟ هل طباع وتحكُم الأمّ سيكون سبباً للرفض؟ فكرت زينب "يمكن أن يكون شرطي الوحيد البقاء في منزل مستقل، وسأستطيع تولي أمر اللقاءات التي سنضطر للقيام بها مع أمّ عبد الله".

في اليوم التالي أخبرت زينب أمّها بموافقتها، وفرحت الأمّ بقرارها؛ ولكنها أبلغتها أنها لن تبلغ أهل صالح إلا بعد انقضاء الأربعين يوما على وفاة الجدة. شعرت زينب بالراحة لهذا القرار؛ وأقلقها هذا الشعور!! هل تتمنى أن يحدث

شيء ينهي موضوع الخطبة دون أن يكون بسببها أو بقرار منها؟! هل تخشى تحمُّل مسؤولية هذا القرار وتخشي أكثر من ضياع هذه الفرصة؟! حيرة كبيرة بحجم المستقبل والأيام القادمة، إنه زواج بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى؛ رجل.. أطفال.. أسرة..، حياة بطول ما هو مكتوب لها أن تعيش، تغيير جذري بكل تفاصيل حياتها، وعادت للحيرة!! وعادت للانتظار.

كانت زينب قد أخبرت صديقتها منال بأمر الخطبة، فتحمست لها صديقتها وشجعتها على القبول وعيش التجربة على أمل أن تكون موفقة في هذه الزيجة. كانت زينب تحبّ صديقتها كثيرا وتثق برأيها، وكانت فخورة بها؛ فقد استطاعت في فترة قصيرة أن تدرس دبلومة لمدة سنة في إحدى كليات مدينة (تورنتو) حيث تعيش مع أهلها، وبدأت بعدها العمل في إحدى الشركات، سعيدةً بحياتها وتجربتها الجديدة.

مرت الأيام التالية كعادتها، ما بين العمل والبيت والشجار الدائم بين زينب وزينة؛ التي ترفض أخذ دورها في المساعدة بأعمال البيت بحجة أنها طالبة، ويجب أن تهتم بدراستها. أمّا زهرة فقد قللت من تواصلها مع زينب على الهاتف؛ وقلصت زياراتها بشكل عام بسبب انشغالها بالدراسة والامتحانات، التي أصبحت الهدف الوحيد في حياتها متجاهلة همّها، ومتجاهلة الزوج الحاضر والغائب بنفس الوقت. تذمرت الأمّ من تصرفات زهرة، ولكن الأب أسكتها وطلب منها عدم التدخل في حياتها، وتركْها تعمل ما تراه جيدا.

نادى الأب زينب، وجلس معها على انفراد، وأخبرها أنه يرغب برؤيتها سعيدة، وأن السعادة قدر؛ علينا بذل الجهد للحصول عليها، وختم كلامه بقوله "احرصي يا زينب على التمسك بعملكِ وتطويره فأنا لن أبقى لكِ العمر كله ويمكن لعملكِ أن يسندكِ في حياتكِ في كل الأحوال". قبّلت زينب أباها، وتمنت له طول العمر، وفهمت وصية أبيها جيدا، وعرفت سبب مساندته لزهرة؛ وقررت أن تبذل جهدا للحصول على عمل في مجالها، حتى تحظى بفرصة للتطور وبراتب أفضل.

*****

مرت الأربعون يوما على وفاة الجدة؛ وتم إبلاغ أسرة صالح بالموافقة على الخطبة، وحُدد يوم الخميس التالي لمقيل الرجال. جاء يوم الخميس وقد تم تجهيز المقيل، وإعداد ما تتطلبه جلسات الرجال، وجاء صالح مع أعمامه وخاله وأشقائه ومعهم أربعة من أصدقاء العائلة؛ واحضروا معهم القات والهدايا. شاهدته زينب مع أمّها من النافذة، وهو مرتدياً الزي الوطني، فبدا مختلفا عن يوم التعارف، ولكنها أُعجبت بمظهره، وعلّقت الأمّ أنه وسيم. قدّم صالح بعض الهدايا (ملابس وقطع من الأقمشة الفاخرة والعطور وبعض من الحلي). وبهذه الزيارة تمت الخطوبة رسميا على أن يتم العقد بعد ثلاثة شهور، ومن ثم الزواج في بداية الصيف أي بعد ستة شهور من الآن.

تم إعداد حفل صغير للخطوبة– خاص بالنساء–؛ ضم نساء الأسرتين وصديقات زينب المقربات، وفي نهاية الحفل جاء صالح مع والدته – التي لم تحضر الحفلة–، وكان مرتديا بدلة رمادية أنيقة، تاركا لحية خفيفة أظهرته أكثر وسامة، بينما ارتدت زينب فستان طويل وردي اللون ومطرّز عند الصدر، وعندما وصل صالح؛ لبست شال طويل حجب ذلك التطريز وارتدت حجاب أبيض، ألبس صالح زينب خاتم الخطوبة، وترك لإشراق مهمة إلباسها طقم الذهب.

أربكت الحفلة صالح، فهو لم يعتد على التواجد في مكان مليء بالنساء رغم قلتهن، وعندما لمس يدها حتى يلبسها الخاتم، تدفق الدم إلى وجهه، وبحث بعينيه عن شقيقته حتى تكمل إلباس زينب هدايا الخطوبة. وعندما غادر بدأ يسترجع الموقف عدة مرات في خياله؛ وانتابه شيءٌ من الخوف، تضاربت مشاعره ولم يستطع تمييز الرهبة من الخوف!

زادت سعادة أسرة زينب بولادة نهاد وإنجابها فتاة، ففرحت الأسرة بالحفيدة الجديدة، وواصلت الأمّ دعواتها لله أن يأتي يومٌ تنجب فيه زهرة. وبدأت الأسرة تستعد لتجهيزات عرس زينب.

قابلت زينب صالح بعد يوم الخطبة مرة واحدة وبالطبع برفقة أخته، وقابلته أيضا بالعباية والحجاب ودون أي تجميل، وتحدثا بموضوع سكن المستقبل، فوعدها أن يلتزم بهذا الشرط؛ ولكن ليس قبل الزواج؛ لأنه موعود بترقية؛ وسيمكّنه ارتفاع الراتب من استئجار سكن مناسب؛ وهذا سيكون بعد فترة. ناقشت الأمّ

والأب وأخوها زيد موضوع تأجيل السكن الخاص، واكتفت زينب صاحبة الشأن بالاستماع حائرة! فمن الواضح أن التمسك بالسكن المستقل سيعني فسخ الخطوبة. كان صالح يبدو شاباً لطيفاً، دمث الأخلاق، حلو الكلام؛ فتعلقت به زينب؛ وأقلقها أن تخسره؛ ولكنها لم تجرؤ على إعلان هذا الشعور؛ فاكتفت بدور المستمعة منتظرة أن يتم اتخاذ القرار بدلا منها. رغم إصرار الأب على تأجيل الزواج حتى يتمكن صالح من استئجار بيت مستقل؛ إلا أن الأمّ لم يعجبها هذا الحل؛ ولم ترغب كما يبدو من إغضاب عائلة صالح؛ فعارضت الأب وتمسّكت بالاكتفاء بوعد صالح. وهكذا سارت الأمور وأُعتبر التزام صالح الشفوي بمثابة وعد قاطع؛ وتم عقد القران وأصبحت زوجته.

بعد عقد القران قابلت زينب صالح عدة مرات؛ لمناقشة تفاصيل الحياة الجديدة، وأصبحت تتزين بشكل خفيف، وتلبس فساتين مناسبة، تاركةً شعرها مسترسلاً فوق كتفيها، وبدأ صالح يتعلق بها أكثر، وينتظر بفارغ الصبر متى يجمعهم بيت واحد. شرط الاستقلال بمنزل خاص بهم، شرطٌ وافق هوى صالح، ولكنه لم يُظهر لأمّه ذلك؛ وعلى العكس انتقد الشرط مبررا أن الظروف هذه الأيام غير موائمة لزيادة المصاريف، وفي نفس الوقت كان يخاف أن يكون هذا الشرط سبباً في فسخ الخطوبة في الوقت الذي بدأت زينب تدخل قلبه وأحلامه.

حدّثها صالح في إحدى لقاءاتهم حديثاً مطولاً عن أسرته، وأخبرها أن والده توفي منذ أكثر من عشرين عامًا بحادث سيارة. كرّست الأمّ حياتها لتربية أولادها

الصغار، الذين كانوا لا يزالون في مرحلة الطفولة، وأصغرهما إشراق، الابنة الوحيدة، التي كانت تبلغ من العمر عاما واحدا عند وفاة الأب. وأخبرها أن المعاونة وكما يطلق عليها (أمي نزيهة) تعيش معهم منذ زمن، ولم يعِ الحياة إلا وهي معهم، وهي أصغر من أمّه بما يقارب الخمس سنوات أو أكثر، تزوجت في وقتا ما وتركتهم؛ ولكنها عادت واستقرت معهم بعد أن توفي زوجها الذي لم تنجب له أولاد. أمّا الأخ الأكبر عبد الله فقد تزوج منذ عشر سنوات من سميرة، ولديهما حاليا ولد في التاسعة من العمر (فارس)، وفتاة في السابعة (فادية)، والابن الأصغر (وليد) في الخامسة. يمتلك شركة استيراد وتصدير صغيرة بين اليمن والسعودية. يليه وهيب، متزوج منذ ثمان سنوات من جميلة. لديهما أربعة أطفال (ياسر) في السابعة، (محمد) في السادسة، (سيف) في الخامسة و(ندى) في الثالثة من العمر. يشغل وهيب وظيفة مراقب الجودة في شركة أخيه عبد الله بعد أن خسر عمله في منظمة كبيرة أغلقت أبوبها قبل الحرب مباشرة. يليه عماد متزوج منذ سبع سنوات من هدى، والتي تعمل معلمة في مدرسة. لديهما طفلان، الأكبر خمس سنوات (علي) والآخر أربع سنوات (يوسف). يعمل عماد إداري في جامعة خاصة، وبعد عماد يأتي صالح، ثم الأخت الوحيدة، إشراق والتي تدرس الطب.

اتسمت الجلسات التي انفرد فيها صالح وزينب في صالة منزلها بمحادثات عامة، أو عن تجهيز الحجرة الخاصة بهم وعن نظام البيت وغيرها، ورغم انتظار

زينب لبعض الكلمات اللطيفة التي يتبادلها الخطيبان، فأن صالح لم يتغزل بها مطلقا؛ ممّا جعلها تخاف أنها ربما لم ترُق له عندما تقاربا، ولكنه كان يرسل لها نظرات خاصة؛ ويبتسم لها فترتبك وتخجل؛ فأقنعت نفسها أنه بالتأكيد شابٌ خجول، ولم يعتد محادثة الفتيات.

- يُمكنك أن تجهز حجرتك للعروس، وتذهب لشراء سرير جديد بمفردك؛ ولا داعي لذهاب زينب معك. قالت الأمّ لصالح، عندما أخبرها أنه سيصطحب زينب لاختيار ما يعجبها.

لم يُعجب الأمّ هذا الأمر، ونصحته ألا يعطي لها هذه الحرية فقد تعتاد عليها، وأن يظل ممسكا بزمام الأمور كاملةً حتى تعتاد تقبُّل فقط ما يريده. وهكذا اشترى صالح غرفة نوم جديدة، ولم يُشرِكها في اختيارها. حزنت زينب ولكنها لم تخبره، فهي تحاول جاهدةً ألا تخلق مشاكل بينهما في هذه المرحلة.

أخذها صالح إلى منزله لرؤية غرفتها الجديدة. كان المنزل قريب من منزل أهل زينب، قد يستغرق بالسيارة عشر دقائق– وهو يقترب من شارع الزبيري التجاري–، شاهدت زينب بيت صالح بمجرد دخول الحيّ، إذ كان البيت الأكبر في الحارة، وتتوقف الطريق أمامه ليس لها امتداد، مبني من الحجر ويحيط كل حجرة إطار أسود. المنزل مكوّن من طابقين مرتفعين بنفس التصميم، وطابق ثالث غير مكتمل البناء، بُني فيما بعد؛ فأختلف نوع الحجر بشكل واضح؛ ولم يتم استكمال بناؤه بسبب الأحداث الجارية. كان البيت مبنياً وسط أرضية كبيرة

مسوّرة ومُحاطة بالشجر المعمِّرة، الطابق الأول مرتفع يتم الصعود إليه بعدة درجات لها درابزين– أخبرها صالح أنه تم أضافتها مؤخرا من أجل تسهيل صعود الأمّ إلى البيت–، ومكوّن من ثلاث حجرات للثلاثة الأبناء (وهيب، عماد وصالح)، وصالة صغيرة في الوسط خُصّصت للأطفال يجلسون فيها لعمل واجباتهم وفيها التلفاز، ونادرا ما يجلس فيها الرجال، وفي هذا الطابق حمام واحد ومجلس متوسط الحجم، مغلق بشكل شبه دائم. الطابق التالي يوجد فيه المطبخ، وملحق به حجرة صغيرة للمعاونة، وثلاث حجرات وحمام، إحدى الحجر للأمّ، وهي أوسع الغرف فُرش جزء منها بفراش أرضي ومداكي (مجلس صغير للأمّ). والأخريان إحداهما حجرة إشراق، والأخرى تُسمى حجرة الأطفال، يحتلها أبناء وهيب الثلاثة، و(تبقى الابنة في حجرة والديها)، وابن عماد الأكبر (وأيضا يبقى الابن الأصغر في حجرة والديه)، وبعدها يوجد درج إلى باب مغلق يفتح إلى الطابق الثالث، الذي توقف إكمال بنائه بسبب الحرب. ويحيط بالبيت مساحة متسعة بالخلف غير مستغلة، خالية من الزرع، يلعب فيها الأطفال فيعودون معفرين بالتراب الناعم.

الحجرة المخصصة لزينب وصالح هي نفس حجرة صالح السابقة، متوسطة الحجم، تم طلاؤها حديثا باللون الأبيض، لها نافذة واحدة تُطل على الحديقة الخلفية للبيت، الستارة على جانبي النافذة رمادية اللون ذات نقوش سوداء، قماشها سميك، في منتصف الحجرة سرير النوم الجديد مع ملحقاته، لا يحمل

ملامح مميزة ولم يكن ملبيا لذوقها أو توقعها. أبدت زينت إعجابها بالغرفة المخصّصة لها، ولم تكن صادقة بهذا الإعجاب. في هذه الزيارة لم تقابل زينب الأمّ ولا أي من زوجات الإخوة، استغربت لذلك ولكنها فضّلت الصمت وعدم الاستفسار، وفكرت "سيأتي اليوم الذي أتعرّف عليهن؛ لا داعي للاستعجال".

*****

عادت زينب للبيت واتجهت لحجرتها بعد أن نزعت نقابها، تحاول تجنُّب مقابلة أي أحد من عائلتها، قلبها ليس مسروراً وهي عائدة من لقاء صالح، لِما؟ فكرت بعد أن ألقت بنفسها على سريرها دون أن تخلع عبايتها، وما زال النقاب بيدها " ألن يكون لي رأيٌ فيما نشتريه من الآن؟! ألن أضع لمساتي الخاصة على حجرتي مبدئيا وبيتي مستقبلا؟ لِما لا يشركني صالح بهذه القرارات؟ هل سأستطيع تغيير طبعه؟ أو طرح رأيي فيما أحبّ؟ هل سيسبب فرض رأيي خلافا بيننا؟" تعرف زينب أنها في بداية طريق، العقد تم والتراجع غير وارد، ولكن عليها فقط أن تكون أكثر حزما من الآن.

لم تكن زينب تُشرك شقيقتها حتى لا تشغل بالها وتلهيها عن دراستها، فكانت تلجأ لمحادثة صديقتها منال، التي أيدتها على خوض تجربة الزواج. وقالت لها:

- فكري لو لم تقبلي بصالح وجاء خطيب آخر ظروفه أفضل، هل عندها سيكون زواج ناجح؟

- **ليس شرطاً! لقد كانت ظروف مازن جيدة، وسكنا شقة مستقلة منذ البداية، ومع ذلك – وكما تعلمين– زهرة ليست سعيدة.**
- **هذا ما أقصده. للأسف لا نملك تفصيل الزوج وظروفه كما نريد، ولا نملك تحكماً كاملاً بما تحمله لنا الأيام. جربي، وابذلي جهدكِ لنجاح التجربة.**

*****

(4)

استعدت أمّ زينب للعرس بنشاط وحيوية، رغم انتشار وباء (كوفيد)، ونشر الكثير من التوعية بتجنُب الازدحام والتقليل من التجمّعات، لم تهتم أمّ زينب بذلك؛ فأخرجت المزاهر التي أعدّتهن سابقا في عرس زهرة؛ وقامت بتنظيفهن وغرست الشذاب الجديد داخلهن، وأخرجت أيضا ذلك الشرشف الأخضر والسجادات، ووضعت الخِتم (كتب القرآن) داخل حقائبها من القماش (المخمل والساتان). وقضت يومها في تجهيز منصة العروس لحفلة النقش بمساعدة زينة. بينما جابت زينب وزهرة المحلات والأسواق حتى تُجهز زينب نفسها بما تحتاجه في حياتها الجديدة متبعةً نصائح أختها بعد أن أخرجت القلق من عقلها، وعاشت اللحظات الحلوة للتجهيز للعرس.

ذهبت زينب وشقيقاتها وبنات خالتها إلى الحمام في اليوم السابق ليوم النقش؛ وقد حجزنه خاص لهن عملا بنصيحة تجنب الاختلاط والازدحام، لم تكن زينب من مرتادين تلك الحمامات، ولكن أمّها أصرّت على ذلك؛ ولذا رضخت زينب للأمر واتمّت المهمة بأسرع وقت. جاءت المنقشة تنقش أيدي العروس وقدميها بالحنا النقشات الجذابة؛ ومن حولها الصديقات ينتظرن دورهن بنقش أيديهن نقشات خفيفة.

بعدها بيوم أقيم حفل يوم النقش؛ تدفقت النساء والبنات من الأهل والصديقات المقربات إلى بيت زينب، وقد لبسن أغلبهن المصّر والعصبة (لبس

تقليدي) المناسب لثوبهن؛ والذي يغطي رؤوسهن ويظهر الشعر على أكتافهن، وهو تقليد محببٌ لبسه في يوم النقش؛ فيقمنْ بارتدائه حتى اللواتي لا يُعتبر من الملبس المتعاد لهن.

تم إعداد وليمة غداء؛ ففُرشت صالة التلفاز –بعد أن تم إخراج محتويات الحجرة بكل ملحقاتها– بمفرش طويل على الأرض مغطى بسفرة شفافة، ووضعت عليه أطباق الأكل التي احتوت على (الشفوت) والسلطة الخضراء المقطعة قطع صغيرة و(سحاوق البسباس) كمرحلة أولى، ومن ثم رفعت الأطباق ووضعت صواني الأرز مع اللحم وأطباق خضار البامية والفاصولية الخضراء وصواني مرق اللحم وبعض المشهيات مثل العشار وغيرها. وفي وسط هذه الأكلات تربعت مقالي (السلتة) مغطاةً بالحلبة الخضراء وهي مازالت تفور بفعل الحرارة، ورُشت الأخباز على جوانب السفرة، ووضعت صواني (بنت الصحن) وقد رُشت بالعسل. بعد الغداء وُزعت بعض الفواكه والحلويات اليمنية مثل (الرواني). واتجهت بعدها النساء للمقيل، وبدأت أكواب قهوة (القشر) تُوزع تزامناً مع توزيع ربطات (القات) على الحاضرات، بينما تصاعدت أغاني الأعراس تُسمع في البيت بالكامل.

وعند انتهاء صلاة العصر، جاءت مغنية الحفل؛ وجلست في المكان المخصص لها؛ ودندنت مع عودها أجمل الأغاني وشاركتها بعض الحاضرات بالدندنة معها أو بالرقص الصنعاني. ومع اقتراب الساعة الخامسة زُفت العروس

زينب وهي مرتدية ما يسمى "القميص" مع غطاء للوجه؛ فلا يظهر منها شيءُ، ومع أغنية الزفة المعروفة للفنان أيوب طارش التي غنتها لها المغنية؛ مرافقةً لها مع الفتيات حاملات المزاهر ومرشات ماء الورد والمباخر من الدرج حتى المنصة المُعدّة لها؛ ويتخلل الزفة الزغاريد من الصديقات وبعض النساء الحاضرات بينما واصلت المغنية غناءها الشجي، ومن ثم طلبت الحاضرات من المغنية أن تغني من التراث اليمني للأعراس؛ فغنت الأغنية المعروفة "حجبي يمة عليا". وجلست العروس زينب على هذا الوضع قرابة نصف الساعة قبل أن تصعد مرة أخرى وتلبس ملبس آخر مُزيّناً بزينة العروس وكاشفاً لوجهها؛ وعادت مرة أخرى للمنصة؛ ومضى الوقت بالرقص على الأنغام والأغاني المتنوعة.

وكان اليوم التالي يوم راحة؛ وإن كان البيت يعج بالبنات والخالات والعمات؛ اللواتي طالت سهراتهن إلى وقت متأخر؛ بينما أُلزمت العروس بالذهاب للنوم استعدادا ليوم العرس. ووجدن صديقات زينة فرصة فطلبن منها الغناء لهن، فأسعدها هذا كثيراً وغنت عدة أغاني؛ بعضها بمفردها وبعضها شاركنها صديقاتها وأغلب الساهرات من الضيفات المقربات؛ وقد تفاجأن من جمال صوتها الشجي. لم يعجب الأمّ هذه الاحتفالية التي قادتها زينة، ولكنها سكتت على مضض حرصاً على عدم الجدال معها في يومٍ مثل هذا.

وجاء بعدها يوم العرس، وقضت زينب وأختها زهرة ساعات صباحهن حتى الظهر لدى محل تجميل العرائس والذي حُجز أيضا لهما وللمقربات، وضعت

المرأة مكياج زينب فأحسنت الاختيار، لم يكن مبهرجاً ولا باهتاً، فظهرت زينب بصورة لم تعهدها هي نفسها، فهي لم تعتد وضع المكياج على وجهها إلا بشيء خفيف في الأعراس.

زُينت طاولات الصالة – التي تم حجزها منذ وقت مبكر– بالورود والشموع؛ وجُهز الممر من مدخل القاعة حتى المنصة التي صُممت تصميماً بسيطاً – بحسب رغبة زينب– على شكل مروحة كبيرة وردية اللون؛ وفي الوسط حرفان بداخل قلب (Z & S) وبجوانبها سلال الورد، بينما الأضواء تحيط بها. سعُدت زينة بتحمل مسؤولية تصميم المنصة؛ وحاولت أن تبذل أقصى جهدها حتى تُبرز عملها لأهلها، وبالفعل فقد صُممت منصة العروس بشكل رائع جدا، حتى أن العديد من النساء سألن عن المحل الذي جهز المنصة.

في يوم الحفل استقبلت أمّ العروس– وقد ارتدت الفستان المطرز الطويل– ضيوفها من الأهل والصديقات والمعاريف أمام الباب مع سميرة، التي نابت عن عمتها التي فضلت الجلوس بالطاولة المخصصة لأهل العريس بدلا من استقبال الضيوف وقوفا أمام البا. خصصت طاولة أهل العريس منذ البداية بالقرب من منصة العروس، جلست فيها أمّ عبد الله مع شقيقتها وإشراق وهدى وأمّها وجميلة وكذلك المعاونة. لم يكن لجميلة صديقات حتى تحضر عرسهن، كما كانت تعتذر عن الأعراس التي يتم دعوة جميع نساء العائلة لها؛ لأنها لا تستطيع ترك أطفالها بمفردهم، ولكنها اليوم حضرت برفقتهم، وتولت المعاونة مساعدتها بابنتها

الصغيرة؛ لذا كانت الحفلة بالنسبة لها حدثاً جديداً مبهجاً، انبهرت بكل تفاصيلها والتي لم تحظ بقليلٍ منها.

وتدفقت الحاضرات وهنّ بأكمل زينتهن وأبهى طلتهن. وقُرب الساعة الثامنة دخلت العروس؛ وسارت بالممر المزيّن على نغمات زفة (زفوا العروس.. زفوها)، حتى وصلت المنصة فجلست وتغيّرت الموسيقى إلى الأغاني المتنوعة؛ فقامت الفتيات وبعض النساء بالرقص الصنعاني واللحجي (العدني) وفقا للأغنية، بينما الزغاريد تنطلق من هنا وهناك. وشاركت إشراق وهدى بعض الرقصات، بينما رقصت زهرة وزينة وصديقات زينب الكثير من الرقصات. مرّ العرس بهدوء وسلاسة، وتم توزيع أطباق العشاء المُعدّة داخل صناديق أنيقة مع المشروبات المختلفة، ومع اقتراب الساعة العاشرة مساءً، تناقل خبر قدوم العريس، فقمن كل الحاضرات بارتداء عباياتهن وحجاباتهن وتغطية وجوههن بالخمارات (النقاب)، خرجت زينب برفقة شقيقتها زهرة – والتي قد ارتدت حجابها كاملا– إلى مدخل القاعة؛ وانتظرتا قدوم صالح؛ فأقبل وفقا للتعليمات التي أُعطيت له؛ ووضعت زينب يدها على ذراعه، ومشت معه على نشيد (أسماء الله الحسنى).

اجتاز العروسان الممر حتى وصلا للمنصة– وهي تغطي وجهها بالطرحة الشفافة، وقف صالح وهو مضطرب، ورفع لها الطرحة وقبّلها في جبينها؛ ثمّ جلس كلاهما على الكراسي المزينة. وبقدوم العريس بدأت بعض النساء بالمغادرة، واحتلت ساحة الرقص الفتيات الصغيرات.

كان صالح يشعر أنه داخل كابوس؛ فهو– أبدا– لم يتواجد في مكان مزدحم بهذا العدد من البنات والنساء من قبل، شاهد من مكانه أمّه وحولها زوجات إخوته؛ فشعر بقليلٍ من الهدوء، تحدّث لزينب بكلمات لا يذكر ما هي، ولم تسمعها زينب ولكنها ابتسمت له. كان صالح قد اشترط ألّا يمكث إلا نصف ساعة، وكان له ما أراد، فانصرف بعدها وسط تصفيق وغناء الصديقات، وتوجها معاً إلى السيارة المزيّنة (بعد أن ارتدت زينب العباية والخمار على وجهها) وسط ضجيج أبواق سيارات الأهل وأصدقاء صالح، الذين ضغطوا على أبواق السيارات بنغمة متقطعة معروفة لموكب العرس، فتُخلى لهم الطريق ويرسل بعض المارة المباركات. وهكذا توجهوا نحو منزل صالح، وخطت زينب أول خطواتها في حياتها الزوجية.

****

راقبت زينب نفسها وهي في حجرة صالح، أحست بالقلق، والترقب، هذه هي ليلتها الأولى، عليها أن تكون إيجابية، وأن تتوقع الخير حتى يأتيها، هذه هي وهذا صالح؛ وعليها أن تمضي إلى حيث ستقودها أقدارها.

بدأت زينب وصالح حياتهم الزوجية بنزهات قصيرة إلى أماكن داخل اليمن، اعتبرتها ما يُعرف بشهر العسل، فذهبا إلى وادي ظهر، وعرّفها صالح على مزارع العنب التي يملكونها، وذهبوا لزيارة عمّ صالح الوحيد الذي يسكن هناك، وأخبرها صالح أن عمّه يُشرِف على مزارع العنب الخاصة بهم، ويرسل لهم نصيبهم من

أرباحها كل فترة وأخرى، وأنهم (العمّ وزوجته)، لم يغادرا الوادي، حتى بعد أن كبر أولادهم وذهبوا إلى صنعاء. جلس صالح وزينب تحت عرائش العنب، وتناولوا من عناقيده، وقرروا أن يأخذوا أولادهم إلى هذه المزارع يوماً ما. ثمّ زاروا دار الحجر الذي يقع في نفس المنطقة عند مدخل وادي ظهر.

في اليوم التالي ذهبا إلى صنعاء القديمة، وتجولا في أزقتها القديمة، وجلسا لتناول المشروبات في منتزه البستان الذي يملك إطلالة رائعة على شوارع وأزقة صنعاء القديمة، وقاما برحلات أبعد فذهبا إلى كوكبان والأهجر وتحدثا عن مواقف وحكايات مضحكة حدثت لكل منهما في فترة الطفولة، وتبادلا الأحلام وخططا لأطفالهما القادمين.

وهكذا مرت تلك الأسابيع على أجمل ما يكون، تعلقت زينب بصالح، وشعرت به سنداً في حياتها –خاصة –عندما شجعها أن تبحث عن عمل في مجال المحاسبة على اعتبار أن لها مستقبل أفضل، ولم يقلقها إلا ما لاحظته في حديثه من تفاخر بنفسه وعمله بشكل ظهر لزينب مبالغ فيه! ولم تستطع ترجيح كفة الطموح عن كفة الغرور.

*****

خلال تلك الفترة كانا يتناولان طعامهم خارج البيت؛ فلم تقم زينب بإعداد أي طعام إلا وجبات الإفطار الخفيفة، كما لم تتعرف على الساكنين في البيت إلا بشكل محدود، حتى إشراق لم تصادفها كثيرا. وهكذا انتهت إجازة صالح وعاد

للعمل، وتبقى أسبوع من إجازة زينب. خلال هذه الفترة شعرت زينب أن مخاوفها تجاه عمتها (أمّ عبد الله) مبالغ فيها، وأن توجسها من زوجات الإخوة لا داعي له– أو هذا ما اعتقدت. ولكن أول يوم لها بعد انقضاء شهر العسل – الذي لم يكن شهرا كاملا– حدد ملامح الأيام القادمة بوضوح.

استدعت العمّة زينب مباشرة بعد خروج صالح إلى حجرتها الخاصة في الطابق الأعلى، دخلت زينب ووجدت العمّة تجلس على مجلسها الأرضي الصغير الموضوع في أحد أركان الغرفة، وكان ضوء الشمس المتسلل من خلال القمرية الملونة ينعكس على وجهها فبدت عيناها ضبابية، جلست زينب أمامها وانتظرت حديثها، وهي تشعر أنه لن يكون لطيفاً! بدت ملامح العمّة منزعجة ونظراتها غاضبة، وبعد طول صمت قالت:

- انتهت فترة الضيافة، قد تجولتما كثيراً وصرفتما أموالاً كثيرة؛ ونحن نعيش مرحلة صعبة علينا أن نكون حريصين أكثر.

صمتت وهي تقلب حبات المسبحة بيدها؛ ثمّ أكملت:

- عليكِ معرفة قواعد وقوانين هذا البيت بوضوح ومن الآن، يجب ألّا تخالفيها مهما كانت الأسباب.

استمعت زينب لحديث العمة الذي كان واضحا وصارما. بدا نظام البيت غريباً عنها، وحتى عما هو معتاد في أغلب البيوت التي يعيش فيها الأبناء المتزوجون مع بعضهم في بيت العائلة، كان لكل من زوجات الأبناء الساكنات

في المنزل حجرتها الخاصة، ومع ذلك لم يكن يحق لها إغلاقها بالمفتاح خلال اليوم أبداً وفقا لأوامر العمّة. المجلس الرئيس في البيت مغلق لا يفتح إلا بأمر العمّة، ونادرا ما كان يُفتح على أي حال، ولا يحق للزوجات استخدامه؛ وعليهن دعوة ضيوفهن إلى حجراتهن إذا رغبن؛ أو الاستئذان باستخدام المجلس إذا كان عدد الضيفات لا يسمح باستقبالهن في الحجرة، وعلى أي حال لم تكن هدى تستقبل صديقاتها في المجلس؛ أمّا جميلة فلم يكن لها صديقات من الأصل.

وكان لكل واحدة من الزوجات وقتا مخصصا في المطبخ لعمل طعام الغداء لعائلتها؛ وقد تتداخل هذه الأوقات حسب الظروف، وعليها أن تأخذ مستلزمات الوجبة – والتي تقتصر على أساسيات الطبخ– من المعاونة بعد أن تعطي لها العمّة الأوامر، وعندما تنتهي من الطباخة والأكل، عليها تنظيف المطبخ وإنزال معداتها التي طبخت بها وأطباق الأكل إلى حجرتها.

وإذا كانت المشاركة في وقت المطبخ أمرا مقبولا نوعا ما لزينب، فأن الحمام المشترك لثلاث عائلات مع أطفالهم كان أمرا صعبا؛ لم تستطع زينب التأقلم معه بسهولة؛ ولم يخُفف من ذلك إلا بقاء الأزواج في العمل صباحا، وفي مجالس القات خارج المنزل مساءاً، وكان يمكن للرجال استخدم الحمام الثاني في طابق الأمّ إذا اقتضت الضرورة. افتقدت زينب الجو العائلي الحميم في منزل أهلها وتناول وجبة الغداء مع بعضهم وسط جو عائلي دافئ.

ومن ضمن الأمور الغريبة التي عرفتها زينب من العمّة؛ أن رواتب الأبناء أيضا تُسلم لها وهي تعطي مصروف شهري للاحتياجات الخاصة لكلٍ منهم (وهيب، عماد، وصالح)، والشيء الوحيد الجيد أن راتب الزوجة لها على أن تشارك ببعض مشتريات المطبخ. كلام العمّة هو الساري بالبيت، لا خروج دون إذنها، ولا تتم دعوات لصديقات إلا بموافقتها. لم يكن كلام العمة مفاجأة لزينب فقد لمّح لها صالح بشكل مقتضب عن نظام البيت.

لم تكن زينب تقابل زوجات الإخوة إلا بالصدفة، تتبادل معهن تحية سريعة فقط ثمّ تنصرف لحجرتها، ولم تكن تخلع حجابها خارج حجرتها؛ وكذلك هدى وجميلة تحسباً لوجود أحد الأزواج. بعد مرور يومين من إجازة زينب المتبقية، دقت باب حجرتها هدى زوجة عماد، حضرت وبيدها صينية عليها كوبان من قهوة القشر (قهوة يمنية من قشور البن) وطبق من الكعك، ابتسمت لها وقالت:

- أحضرت القهوة والكعك ضيافة للعروس.

جلستا بالمقعدين الموجودين في الحجرة؛ وتبادلتا الحديث. أخبرت هدى زينب عن حياتها وعن عملها كمعلمة في مدرسة، وحدّثتها بالمختصر عن زوجها عماد، وعن نظام الأسرة الذي يبدو غريباً لما هو معتاد. ظهر جليا أن الأسرة بشكل عام تعيش في تقشف بدا لزينب مبالغاً فيه، وقد فهمت من حديث هدى أن مشادّة كبيرة نشبت بين العمّة وشقيق زوجها؛ الذي أرسل مبلغا– أقل من المعتاد– بحجة أن الأحداث الجارية قد أثّرت سلبا على بيع محصول العنب في

المزارع التي يمتلكونها، ولم تهدأ الأمور إلا عندما أرسلت العمة ابنها عبدالله إلى وادي ظهر؛ فأكد كلام عمّه. ومع ذلك كانت العمّة تستحوذ على رواتب الأبناء وتعطيهم مخصصات أسبوعية محدودة، دون أن يعترض عليها أيٌّ منهم؛ فقد كانوا يقدرونها ويهابونها كثيراً. عرفت زينب عن هدى وعائلتها؛ وكيف تربت في أسرة لأب غائب، مهاجر عمرا طويلا، وعاد مؤخرا؛ وحدثتها عن زوجها عماد وطموحاته التي لا يستطيع اللحاق بها. بادلتها زينب الحديث وأخبرتها عن أسرتها –أمها وأبيها وإخوتها، وحدّثتها أكثر عن زهرة شقيقتها الكبرى؛ وقلقها من عدم الإنجاب؛ وأخيرا حدثتها عن عملها وعن أملها أن تجد عملاً بتخصصها.

*****

(5)

هدى زوجة عماد امرأة جميلة الملامح، لها شعر ناعم قصير، طويلة القامة، ولها بنية قوية. عاشت في صنعاء منذ أن وعت على الدنيا؛ ولكن أصل عائلتها من محافظة حجة –التي تقع في الشمال الغربي من محافظة صنعاء. والدها كان مغتربا في السعودية منذ زمن، لا تعرفه إلا بزياراته السنوية، عندما كانت طفلة كانت تفرح بالهدايا أكثر من فرحتها بحضوره، وعندما وصلت سن الصبا، لم تعُد تهتم بالهدايا، وأصبحت تحن لبقائه أكثر. لديها ثلاثة إخوة أكبر منها، وأخت أصغر منها بسنة واحدة فقط، لا تتذكر في حياتها إلا أمّها، والتي أعطت وقتها وحياتها لها ولإخوتها، مرت السنون والأمّ بمفردها إلا من تلك الأسابيع القليلة التي يأتي بها الزوج للزيارة. نشأت هدى معتمدة على نفسها، حريصة، تتسم تصرفاتها وآراؤها بالحكمة والتروي، تكره الضعف، والاستسلام، وتحاول جاهدة ألّا تتبع استسلام أمّها في الحياة، وأن تحظى بأسرة طبيعية يعيش الأب وسطها، ويديران دفة السفينة معا.

عندما خُطبت هدى، تأجّلت الخطوبة عدة شهور حتى يحضر الأب، وتم العقد بغيابه وحضور عمّها الكبير، و–الحمد لله– أن حضر الأب العرس في العام 2013. اضطرت هدى لعمل عرس بسيط جدا في منزل أهلها، حيث اقتصر على الأهل والصديقات المقربات؛ وذلك بسبب ظروف البلد التي كانت يومها تتأرجح بين المشاكل فلا يُعرف لها استقرار؛ وزُفت إلى بيت أهل زوجها؛ ولم تعش

مع أبيها فترة تسمح لها بالشعور بمعنى وجود أب؛ فبقي إحساس الأبوة ناقص في حياتها.

كانت هدى قد أنهت دراستها في العلوم الاجتماعية، تخصص (علم نفس)، وعملت معلمة في مدرسة خاصة؛ وعندما تزوجت استمرت في عملها.

وخلال السنوات التالية أنجبت طفلين؛ الأكبر منهما في المدرسة والثاني في الحضانة. كان زواجها من عماد زواجا تقليديا، شاهدتها العمّة في إحدى حفلات الأعراس، سألت عنها ومن أي أسرة هي، ووجدت العمّة معارف مشتركين بينهما؛ فتمّت الخطبة وبعدها تمّ العقد، وبعد شهور من التجهيزات تزوجت هدى من عماد، ولم تقابله قبلها إلا مرات معدودة وضمن الأسرة.

*****

عماد عبد الوهاب – زوج هدى– شاب طويل القامة، ممتلئ الجسم بشكل معتدل، لا يهتم كثير بملبسه وأناقته، طمُوحٌ جدا، ولا يشك أن بإمكانه تحقيق أحلامه. عندما بدأ الربيع العربي، عاش عماد فرحة كبيرة؛ وشارك في المظاهرات التي شهدتها اليمن أسوة بالدول العربية الأخرى مثل (تونس وسوريا ومصر وليبيا)، وداوم كثيراً في الخيام التي أُقيمت في عدة ساحات مؤمناً أن فيها الخلاص، وأن يمناً جديد سوف يولد من رحم الربيع العربي.

وانطفأت فرحته بعد حادثة جمعة الكرامة، في ظهيرةٍ مكلومة من يوم الجمعة، السابع عشر من مارس 2011، إذ كانت صنعاء على موعدٍ مع الفجيعة، ومع

لحظة فارقة لا تُنسى في ذاكرة الربيع العربي اليمني. اصطفّ الشباب في ساحة التغيير، بصدورهم العارية وأحلامهم المليئة بالوطن، يرفعون لافتات الكرامة ويهتفون للحرية، دون أن يدركوا أن الرصاص كان يتهيأ لكتابة صفحة سوداء جديدة في تاريخ البلاد. كان كل شيء يوحي بالسكينة الظاهرة؛ (صلاة جمعة، أناشيد وطنية، خيام مليئة بالدفء الثوري، وأحاديث عن مستقبل لا يشبه الماضي). لكن خلف الجدران، كانت البنادق تعُدّ أنفاسها، وكان القنّاصة يتربّصون على أسطح المباني وكأنهم يترصدون حلماً لا ينبغي له أن يكبر. وحين انتهت الصلاة، دوّى الرصاص! عشرات الشهداء سقطوا في لحظة، والدماء سالت في أزقة الحلم، لم تفرّق بين طبيبٍ ومهندس، بين طالبٍ وحالم. كان الدم هو اللغة الوحيدة التي تحدّث بها الجلاد في تلك الساعة. وسُمّيت (جمعة الكرامة) لأنها كشفت عن مدى التوحش الذي يمكن أن يواجه به النظام صوت المطالبين بحقهم في حياة تليق بالإنسان. لقد طُبعت تلك الجمعة في ذاكرة اليمنيين، لا كلعنة، بل كعلامةٍ شاهقة على أن الكرامة، وإن نزفت، لا تموت.

صمد عماد وأمله الضعيف يحتضر؛ ولكنه واصل مع من واصل إلى أن وقعت حادثة المسجد في ظهيرة الثالث من يونيو عام 2011. كانت صنعاء تحبس أنفاسها، الشمس تسطع على القصر الرئاسي، والمدينة تعيش على وقع الاحتجاجات والانفجارات السياسية، بينما السلطة تتظاهر بالتماسك. وفي

أعالي التلال، داخل جامع الرئاسة، حيث يفترض أن يكون المكان الأقدس والأكثر أمنًا، دوّى الانفجار.

الرئيس علي عبد الله صالح كان يؤدي صلاة الجمعة، مُحاطًا بكبار رجاله، حين اخترقت النيران جدران المسجد. أُصيب الرئيس، واهتزّت البلاد. تسارعت الأخبار، بين من يقول إنه مات، ومن يؤكد نجاته، فيما الحقيقة الأعمق كانت أن هيبة الحاكم للمرة الأولى، سقطت في سجدة واحدة. منذ تلك اللحظة، لم يعد هناك شيء كما كان، لا في جسد الوطن ولا في جسد الرئيس الذي غادر بأسرع ما يمكن إلى السعودية للعلاج. تراجع عماد عن حماسه تماما، وخرج من مجتمع الخيام الذي استشعر فيه دبيب الخيانة، ودخل في دوامة حزن واكتئاب، ولكنه ظل يراقب الأحداث من بعيد؛ وما زال الأمل أن تنفرج الأزمة على خير ورخاء باقياً، فمن المحال أن تظل المعاناة حبيسة هذا الاضطراب كله دون أن ينبثق عنها مولد فجرٍ جديد، وطال انتظاره للفجر المرتقب.

مرت سنوات دراسته الجامعية؛ وما مازال اليأس يطوّق أيامه، وكان الأمر في نهاية المطاف قراراً للأمّ وهو الزواج بمجرد تخرجه من الجامعة؛ حتى تنتشله من هاوية اليأس والإحباط والأحلام التي مزج فيها الواقع والخيال، ووضعته بالزواج على مصطبة المسؤولية علّه يدرك الواقع، ويعيشه ويبتعد عن الخيال. كان الزواج بالنسبة له أمرا بديهيا، لم يكن ينظر له على أنه شراكة بين شخصين، ومنذ البداية عزل زوجته عن أحلامه وأماله، إلا في الساعات التي يكون فيها سعيداً ومزاجه

فيها عالٍ لسبب أو لآخر، فيفيض بحديثه عن أحلامه لهدى، ويحلق بها عاليا، قبل أن تتعثر هذه الأحلام؛ فيعود للتذمر والرغبة بالرحيل خارج هذه البلد خاصة عندما اجتاحت الحرب اليمن.

كان من سوء حظ هدى أن تزوجت رجلا لا يعطي للأسرة من وقته واهتمامه الكثير، ورغم أنها معتادة على ذلك، إلا أنها تمنّت أن يكون حظها مختلفا عن حظ أمّها، تمنت أن يكون زوجها رجلاً يُقدّس الأسرة ويهتم بها كثيرا، ولكن عماد كان يعتبر الاهتمام بالأسرة شأن يخص النساء؛ ويعتبره شأناً جانبياً في حياة الرجال، وبسبب طموحه كان دائما يخطط لأحلام متنوعة منها ما هو منطقي ومنها ما يتخطى المعقول، ويسعى لها دون تروٍ أو تفكير، يطوّر نفسه أيضا كيفما كان، ويؤمن أنه سيغير قدره التعيس وسيأتي يومٌ ما تنجح مساعيه للتغيير. لم يكن يُشرك زوجته في هذه الأحلام ويعتبر أنها لم ولن تفهم (مثلها مثل أمّه لن تفهمه) وبكل الأحوال ليس لها دور في تحقيقها.

"لا أجد نفسي، لا أشعر أني في مكان لائق بي، نحن جيل سُرق منّا شبابنا، وسنجد أنفسنا نتقدم بالعمر ونحن لم نعش" هكذا كان عماد يحادث أصدقاءه المقربين دائما في جلسات القات. كان يخطط لأحلامه معهم، فتاره يخطط لفتح مقهى له سمات مميزة، ويجعل منه المقهى الأفضل في صنعاء، وتارة يخطط لفتح مكتبة تلبي احتياجات الطلبة وتصبح المزار الوحيد لهم. وهكذا كان عماد يعيش على الأحلام، التي لم تتجاوز التخطيط، وبرغم عدم تحقيق أيٍ من هذه الأحلام

إلا أنها كانت تمثل له جرعات أمل مكّنته من التعايش في بلد له في كل يوم حال. وإذا كانت أحلام عماد لا تضر أحد؛ فأن تعثرها المبكر كان ينقلب إلى تذمر وغضب تأخذ زوجته هدى نصيبا كبيرا منه، وتحاول جاهدة احتواءه وتقدير ما يشعر به.

*****

(6)

قررت زينب قبل أن تعود للعمل أن تقوم بنفس ما قامت به هدى معها، ولكن مع جميلة؛ فأعدّت قهوة القشر وجلبت بعضاً من الكعك تبقت لديها من آخر زيارة لبيت أهلها، وذهبت إلى حجرة جميلة في وقت كان زوجها غير موجود. تفاجأت جميلة وظهر على وجهها الدهشة والانزعاج، وأخبرتها أن ابنتها الآن فقط خلُدت للنوم؛ وأنهما لن يتمكنا من الجلوس في حجرتها، فدعتها زينب إلى حجرتها.

حاولت زينب أن تجر الحديث بينهما للتعارف وكسر حاجز الترقب والتوجس؛ الذي نشأ بينهما دون سبب. تعتبر جميلة أصغر الزوجات، ربما تكون في السادسة والعشرين، أي قريبة من عمر زينب، أخبرت زينب أنها لا تعرف عمرها الحقيقي؛ ولم يتم تسجيل يوم ميلادها كما كان الوضع عند ولادة إخوتها الذكور. تبادلا حديثا عاما جدا، وتطرقا لوضع البلد وظروف الحرب والحصار، وكان الحديث يبدأ من جانب زينب – على الأغلب–؛ والتي قصّت عليها أيضا ما قصّته لهدى، واقتصرت مشاركة جميلة على التأكيد أو إبداء الاستغراب. كان من الواضح لزينب أن جميلة تعيش داخل قوقعة؛ ولا ترى في الدنيا إلا زوجها وأولادها. ولكن كان أهم ما قالته جميلة أنها لم تحظ بعرس ولو بسيط؛ ولم تحظ بمثل الطلعات التي قامت بها زينب وصالح بعد زواجهما، وأنها لا تعرف صنعاء كثيرا، وعندما وصلت صنعاء وجدت الخيام في كل مكان، كما سمعت عن تنحي

علي عبد الله صالح، وانتخاب عبدربه منصور هادي رئيسًا انتقالياً؛ ممّا أعطى لزوجها العذر لعدم الخروج، ولم تفهم السبب ولم تستطع إدراك الأحداث الجارية في البلد.

*****

ولدت جميلة وترعرعت في قرية (الجوير) إحدى قرى مدينة (شبام كوكبان) التاريخية، والتي تحيطها الطبيعة الخلابة والمناظر الجبلية والوديان الخضراء، وتقع شمال غرب العاصمة صنعاء.

جميلة لم تدرس، وتعلمت فقط بعضاً من سور القرآن وحفظتها ، عاشت حياة شاقة تفرضها الحياة في القرى النائية التي لا تعرف غير حدودها عالما لها، ولأنها عاشت يتيمة الأمّ منذ أن كانت تقارب العاشرة من عمرها– حيث ماتت أمّها وهي في مخاض ولادة الطفل السابع، ومات معها الجنين–، فقد غرقت بالعمل ليلا ونهارا في الأرض الزراعية التي يمتلكها أبوها وفي أعمال المنزل، فقد كانت هي الفتاة الوحيدة وسط خمسة إخوة ، إذ لم يمر وقت طويل على وفاة أمها حتى تزوج الأب محمد من امرأة أرملة لديها ثلاثة أطفال، فازدحم الدار الصغير بالأعمال المتعددة. ورغم جمالها الهادئ والملفت للنظر لم تتزوج مثلما تزوجنْ صديقاتها بمجرد بلوغهن؛ فقد حرصت زوجة أبيها على عدم تزويجها حتى تكون عوناً لها في أعمال الأرض والبيت وخاصة بعد أن أنجبت مزيداً من الأطفال في سنوات متوالية. كانت زوجة الأب تقلل من قدر أي خاطب يطرق الباب،

وتقنع الأب أنه أحق بخدمات ومساعدات جميلة طالما العريس ليس مناسبا. يئست جميلة من حياتها، وعاشت في حزن؛ وحقدت على كل من حولها وحتى على أمّها التي رحلت وتركتها. لم تعُد تتحمل رؤية أبناء صديقاتها وقد كبروا وانطلقوا يلعبون في أزقّة الحارة، انشغلت عنها صديقاتها وإذا ما تقابلنْ جرهن الحديث إلى مشاغل الأطفال والزوج وغيرها من الأمور التي لا تعني جميلة.

عندما جاءت أمّ عبد الله في زيارة لشبام كوكبان، وهي زيارة كانت تكررها بين الحين والآخر لمدينة طفولتها، وكذلك لزيارة شقيقتها، سارعت نساء القرية لتقديم واجب الضيافة لها؛ وذهبت جميلة لتقديم ما طبخته زوجة أبيها إلى البيت الكبير في كوكبان، ولفت نظر أمّ عبدالله جمال جميلة وابتسامتها الترحيبية بها، سألت عنها إحدى الجالسات بجوارها والتي صادف أن كانت إحدى صديقات الأمّ المتوفية، فقصّت عليها قصتها؛ وكيف يتعثر زواجها دائما بسبب زوجة الأب حتى بلغت التاسعة عشر من العمر دون أن تتزوج رغم جمالها وشطارتها في أعمال البيت. فكّرت أمّ عبد الله طويلا في قصة جميلة، ووجدت أنه يمكن لها تزويجها ابنها وهيب الذي تبحث له عن عروس هذه الأيام "ستكون مناسبة، ولا تعرف شيئاً عمّا يُشاع عن وهيب، والأجمل أن الأمر لن يتطلب أموالا كثيرة" فكّرت أمّ عبد الله.

*****

وهيب عبدالوهاب الأخ الثالث بالترتيب من إخوة صالح، شاب متوسط الطول يميل للنحافة، وسيم رقيق المشاعر، عاش حباً منذ عمر مبكر، عندما ذهب مع أخيه عبدالله إلى بيت العمّ الأكبر، قابل أمل (ابنة عمه)، وتحولت إلى أمل حياته، هام بها ووضعها في قلبه بصمت؛ ولم يفصح لأحد عن حبه ولا حتى لها، ومع باكورة الشباب استغل الفيسبوك وتواصل معها بخوف وترقب، ولكنها كانت البداية لحب من طرفين أخذت حيّزاً كبيراً على رسائل الفيسبوك والوتساب، وتواعدا على الزواج بمجرد أن يكمل وهيب الدراسة، ولكن ما لم يكن وهيب على علم به أن الأمّ على عداوة قديمة مع أمّ أمل (زوجة أخو زوجها الراحل)، فلم توافق وهيب نهائيا. لم تقصّ أمّه عليه السبب؛ ولكنها عندما سمعت طلب وهيب صرخت وتشنجت وهي تقول "من أمل؟؟ ابنة إقبال؟؟!! لم تجد في اليمن كلها غير هذه، ابنة تلك المرأة التي حاولت بشتى الطرق أن تزرع الخلاف بيني وبين أبيك وتسببت بالفعل بطلاقي! ولولا مشيئة الله وحملي بأخيك عبد الله، لما أعادني أبوك لعصمته، لن أسمح لهذه الفتاة بدخول بيتنا مهما حدث، ولن يحدث طالما أنا في هذه الحياة". أصرّ وهيب على هذا الزواج، وهدد بإتمامه دون موافقة الأمّ، وترك البيت غاضبا، فجاءه اتصال من شقيقه عماد لتبليغه أن أمه قد نُقلت للعناية المركزة ومن المحتمل أنها قد أُصيبت بجلطة، فهرع إلى المستشفى وهو خائفٌ أن يكون السبب في وفاة أمه، وعلى فراش المرض، وعدها أن ينسي أمر هذا الزواج وهذه الفتاة. ولكن هذا ما كان ظاهريا فقط؛ فقد ظلت أمل في

قلبه وإن انقطع كل اتصال معها. شاع الخبر وسط الأهل والمقربين وقدمت بعض النساء نصائحهن للأمّ بأن تنسى الماضي وتترك للشباب حرية الاختيار، توسطت المقربات بما فيهم شقيقتها لثنيها عن هذا العناد، ولكن لم تتحرك عن رأيها قيد أنملة.

وافق بعدها وهيب على الزواج من أي امرأة تختارها أمّه، ولم يقدم أي شروط أو متطلبات لزوجة العمر، وتحرك وفق ما تقتضيه الأعراف والتقاليد، وعاش همّه وحده وسط اكتئاب كان يتسلل إليه يوما بعد يوم. حرصت الأم أن تبحث له عن عروس بأسرع وقت؛ ولكن كافة محاولتها باءت بالفشل، وسبقتها الاشاعات عن حب وهيب لابنة عمه، فتعثرت الجهود لتزويجه، حتى زارت الأمّ كوكبان وعرفت بقصة جميلة. وهكذا وجد وهيب نفسه متزوجا لفتاة لا يعرفها، وليس لها أي وجود في قلبه، ولكن أمل ظلت في قلبه وظل الأمل موجود في حياته رغم الزواج وإنجاب الأطفال الذين وجدهم حوله لا يعرف متى!؟

*****

عندما حدثت المشادّة بين وهيب وأمّه، أشفقت المعاوِنة على وهيب؛ وقررت أن تقصّ عليه القصّة علّه يعذر أمّه، فذهبت إليه وطلبت منه أن يسمع منها الحكاية؛ والتي كانت هي شاهدةً عليها، حتى يُقدِّر سبب تصرف أمّه بهذا الشكل ويعذُرها.

"عندما كانت والدتك مريم شابة صغيرة– ما زالت أقرب للصبا منه للشباب؛ أُعجبت بذلك الشاب الغريب الذي شاهدته من نافذة حجرتها في منزل أهلها في كوكبان. دعت أمّي – رحمها الله– وكانت تخدم في المنزل وسألتها إذا كانت تعرف من هو ذلك الشاب، فضحكت أمّي وسألتها إن كانت قد أُعجبت به. ضحكت مريم وصمتت خجلا، فقالت لها أنه عبد الوهاب ابن أحد الأسر القاطنة في وادي ظهر جاءوا في زيارة لمدينة كوكبان، إذا أُعجبتِ به سوف أدلهم عليكِ فقد سمعت أنه يبحث عن عروس. تفاجأت مريم ونظرت إلى أمّي مستحية، وكنت معهن يومها استمع لحديثهما، وبالفعل مباشرةً ذهبت أمّي إلى الدار الذي يسكنون فيه وتحدثت مع الأمّ عن مريم ابنة أكبر رجال كوكبان، وعددت لها صفاتها، ووصفت جمالها، ونبل عائلتها، فابتهجت الأم بالنصيب الذي أتى من حيث لم تتوقع، وتمت الخطبة والزواج خلال وقت قصير؛ وانتقلت مريم إلى بيت زوجها في وادي ظهر وأخذتني معها، معاونة ورفيقة. أحبّت مريم أباك عبد الوهاب كثيراً، وبادلها الحب وهام بها. واستطاعت أن تكسب قلب أمّ زوجها بدماثة خلقها ومرحها، ولكنها لم تستطع كسب قلب زوجة الأ خ الكبير؛ والتي لم يرُق لها هذه القادمة الجديدة التي سرعان ما ملئت البيت بهجةً ومرحاً، حدثت بينهن الكثير من المشاكل التي أقلقت راحة أهل البيت؛ وزادت زوجة الأ خ الكبير من شراسة خططها لإظهار الزوجة الصغيرة سيئة وغير ملمة بأعمال البيت والطبخ، ولكن مريم وزوجها عاشوا سعداء ببعضهم البعض. وتأخرت مريم بالإنجاب عامين ليس إلا ، فوجدتها زوجة عمّك فرصة للكيد من أمّك، فعرضت على أبيك عبد الوهاب الزواج من شقيقتها الصغرى التي اشتهرت بجمالها؛ ومكّنته من رؤيتها دون نقاب، وراقت لأبيك الفكرة مع الأسف، وانتشر الخبر بسرعة وعلمت مريم، فجن

جنونها وتشاجرت مع عبد الوهاب لأول مرة شجارا كبيرا، وتشاجرت مع الجميع، صبت غضبها ولم يسلم أحد منه، انتهى بأن أطلق أبك عليها اليمين غاضبا، وعادت مريم إلى بيت أهلها حزينة من تصرفات الحبيب وخيانته بعد عامين فقط من الزواج.

تدخل رجال أسرتها وأسرة أبيك في محاولة لإثناء أبيك عن رأيه، أو إقناع أمّك بقبول زواجه والذي شرعا يحق له، وظل الأمر يتداول إلى أن أعلنت مريم خبر حملها، فكانت مشيئة الله أن انتهى الموضوع تلقائيا؛ وتراجع عبد الوهاب عن موضوع الزواج؛ وأرضى مريم طويلا قبل أن تسامحه؛ وأعادها لعصمته وشعر أن أسرته أحقُ به، فعادت مريم إلى زوجها بعد أن مكثت في بيت أهلها فترة الحمل؛ ورُزقت بشقيقك عبد الله هناك، ولكن عندما عادت انتقلت إلى هذا المنزل في صنعاء المدينة مستقلة عن دار أهل زوجها، رافضة العودة لمنزل العائلة ولم تسامح زوجة عمك إلى اليوم. وتلك الحادثة هي سبب القطيعة بينها وبين زوجة عمك؛ لم تنتهِ على مر السنين؛ والتي حوّلت مريم المبتهجة إلى امرأة حزينة لم تنسَ ما حدث من زوجها حتى وإن ظلت معه؛ ولم تنس ما فعلته إقبال زوجة عمّك وأمّ أمل إلى يومنا هذا. وبعد أن توفي والدك–كما تعلم–، أغلقت والدتك باب بيتها عن الجميع؛ وتفرغت لحزنها على فقدان الزوج والحبيب ونذرت حياتها لكم، وكما تعلم كانت خالتك هي أختها ورفيقتها والزائرة الوحيدة لها".

*****

وهكذا بعد أسبوعين من زيارة أمّ عبد الله لكوكبان؛ أرسلت ابنيها (عبد الله ووهيب) لخطبة جميلة، وكان الاتفاق أن تجهز جميلة نفسها؛ ويتم عمل حفلة لها في القرية؛ وبعدها تنتقل إلى المدينة دون مرافقة أي من عائلتها. لم تستطع زوجة

الأب إيقاف هذه الزيجة؛ وخرجت الأمور عن سيطرتها، فقد وافق والد جميلة على كل شروط أهل العريس فرحا بهذا النسب الذي رفع رأسه؛ وجعل له شأنٌ كبيرٌ في القرية؛ وتمّ عمل حفلة بسيطة لجميلة؛ وودّعت القرية ورحلت لمدينة صنعاء لأول مرة في حياتها، وزُفت لعريس لم يقع نظرها عليه من قبل. وجدت جميلة نفسها زوجة في بيت وبيئة غريبتين عليها، ولكنها شعرت أن هذا هو حظها الذي خبأته لها الحياة، وأن عليها أن تُقنع نفسها وتكسب زوجها والأهم أن تكسب رضى أمّ زوجها.

لم تأخذ جميلة وقتاً حتى تُغرم بوهيب، أسر قلبها من أول يوم وقع نظرها عليه، شابٌ جميل الطلعة دمث الأخلاق، رقيق المشاعر، ورغم أنه ومنذ البداية لم يولِها اهتماما خاصا، ولم يهمس لها بكلمات ملاطفة وغزل شأن العرسان الجدد، فلم يزعجها هذا في بادئ الأمر "هذا هو شأن الرجال" كما اقنعت نفسها. وحتى تغيُبه عن البيت وقضاء المساء في أغلب الأيام مع أصحابه منذ الأيام الأولى لزواجهما، وقلة كلامه وعدم مشاركته لها بأي حديث خارج الحديث اليومي اعتبرته وضعا طبيعيا "ربما هكذا رجال المدينة"، فكرت جميلة؛ ولم يكن لها من تسأله أو تستشيره. بينما كان وهيب لا يزال يعيش حالة اكتئاب لفراقه حبيبة عمره أمل.

كان عليها وفقا لتعاليم العمّة إعداد طعام الفطور والغداء بنفسها، لكن لها هي وزوجها فقط، تأخذ من المعونة ما يستلزم للطبخ وتصعد للطابق الأعلى

حيث المطبخ الوحيد هناك، تُعِد الأكل وتأخذه إلى حجرتها لتتناوله مع زوجها أو بمفردها إذا لم يحضر الزوج. حظيت بمساعدة كبيرة من المعاونة لتعليمها العمل في المطبخ غير المعتاد لديها، فهو مختلف عنه في القرية، وعلمتها طبخ الأكلات الأساسية التي يحبها وهيب، فأتقنت العمل بسرعة. عاشت جميلة وترعرعت لا تعرف العلاقات العائلية كثيراً، لا تذكر شكل العائلة عندما كانت أمّها لا تزال على قيد الحياة، لا تذكر أي حوار لأمها مع أبيها، ولم تشاهد أباها مع زوجته الجديدة يتبادلان حديثاً خاصاً؛ فالكل يعمل، النساء تعمل في البيوت؛ ومنهن من تُكمل عملها أيضا في الجِرب (المزارع) ، والرجال يعملون طوال اليوم وعندما تودع الشمس القرية، تتجمع الأسر في بيوتها وهو الوقت المخصص للأحاديث والسمر، أمّا في بيت جميلة كان وقت تناول قليلا من الأكل ويخلُد بعده الجميع للنوم، هي في حجرتها الصغيرة بينما يفرد إخوتها فُرُشهم جنب بعضهم البعض؛ وينامون منتظرين فجر يوم عمل جديد. كان هذا هو الوضع بالقرية، أو ربما في بيتهم فقط؛ لا تعلم.

عاشت جميلة في صنعاء سعيدة في حياة خالية من مشقات العمل الذي اعتادت عليه في القرية، تنتظر فقط تلبية طلبات وهيب وترتيب ملابسه وتجهيز القات له، نذرت نفسها له تماما، ومهما تطلب منها العمل في البيت فلم يكن شيء يُذكر مقارنةً بحياتها السابقة، وصبرت على وهيب الذي كان قليل الكلام معها، لا يجالسها خلال اليوم ولا يسألها عن احتياجاتها.

*****

عندما تزوج عماد من هدى وجاءت للسكن في نفس حجرته بعد أن تم إعادة تأثيثها، شعرت جميلة بأن راحتها قد تهتز، فقد سمعت أن العروس الجديد متعلمة، وتعمل في إحدى المدارس، فخشيت أن تُظلم مرة أخرى؛ لذا عليها أن تكون أكثر حرصاً على رضا العمة وخدمة الزوج، يجب أن تظل هي الأفضل في هذا البيت.

ورغم تفاني جميلة في خدمة زوجها إلا أنه لم يمُدّ يده لها، لم يبصرها بضرورة تعلُّم القراءة والكتابة، ولم يهتم بتثقيفها في مستلزمات الحياة الحديثة، تركها كما كانت وهي بالقرية، وهي نفسها لم تفكر مطلقا بأن عليها أن تطوّر نفسها وأن تنفتح على حياة المدينة، لم تكن تشتري ثياب حديثة ولا مستحضرات التجميل أو حقائب اليد، وهذا الوضع كان مناسباً للعمة؛ فتركتها في سُباتها.

ولكن عندما مر عامان على زواج جميلة، حدثت حادثة أثّرت في جميلة كثيراً، فبينما كانت في حجرتها مع ابنها الصغير تحاول تنويمه، جاء وهيب مبكرا من العمل على غير العادة، كان يبدو عليه الغضب العارم أخرجها بكل قسوة من الغرفة مع ابنها وأغلق الباب، لم تفهم جميلة ما حدث، شعرت من الأصوات أنه يتعارك مع محتويات الغرفة سمعت ارتطام بعض القطع على باب الغرفة، لم تستوعب ما يحدث ولم تعلم ماذا تعمل. وبعد وقت قصير نزلت العمّة مع معاونتها التي حملت مشروبا ساخنا، لم يعراها أي اهتمام وذهبا يطرقا باب الحجرة، ونادت

العمّة باسم ابنها تترجاه أن يفتح الباب، ويتناول المشروب الدافئ الذي سيهدئ أعصابه، سمِعت جميلة صراخ زوجها من داخل الغرفة "أنتِ السبب، أنتِ السبب، اتركيني" وعندما يئست العمة؛ عادت إلى طابقها تلحقها المعاونة وهن يتمتمن بكلمات لم تفهم جميلة إلا أنها دعوات لله لإنزال لطفه مع قدره.

بقيت جميلة مكانها حائرة! مستلزمات ابنها في الحجرة، مرّ الوقت وجاء الليل، طلب عماد من زوجته أن تدعو جميلة للنوم معها؛ وسيذهب هو للنوم على أريكة حجرة التلفاز، وكذلك دعتها إشراق أيضا للمبيت معها، لكن جميلة رفضت بإصرار قاطع لأول مرة، وتمددت فوق الأريكة وفي حضنها ابنها وادّعت النوم. عند الصباح غادر وهيب الحجرة؛ وعادت هي إلى حجرتها تحاول ترتيبها وتجميع ما تم تكسيره، دخلت عليها هدى تساعدها وشعرت أن من حق جميلة معرفة ما حدث لزوجها، فما حدث يجب أن يكون له تفسير وتفسير صادق، فقصّت عليها قصّة وهيب مع أمل ابنة عمه؛ وما استجد اليوم هو زواج أمل كما عرفت من عماد.

- ولكن منذ متى هذه العلاقة؟ سألت جميلة بانكسار.
- منذ الطفولة، ردت عليها هدى ناظرة لجميلة بشفقة حقيقية.

جلست بطرف السرير وغادرت هدى الحجرة وهي تنظر لها بأسى، "منذ الطفولة!!" فكرت جميلة وقطر الحزن في قلبها قطرة وراء قطرة مع كل استرجاعها وإدراكها سبب تصرفاته السابقة، "ولكن هل كان ما يزال يأمل بوصال ابنة عمه،

ربما! وإلا لما انهار عند علمه بزواجها". فكرت جميلة بحزن، وفتّحت عينيها عن الأكذوبة التي اقنعت نفسها بها عن سبب عزوف زوجها عنها؛ وهي التي فسّرته دائما أن هذا شأن الأزواج، وأن للرجال عالمهم الخاص. فاض قلبها من الحزن؛ فانتحبت عيناها بالدموع وبكت بحرقة وبصمت، وحنت لصدر تضع رأسها عليه وتنام، صدر أمّ فقدتها منذ زمن ولم تجد له بديل.

*****

جاءت الأحداث في البلد متتالية؛ سيطرت جماعة الحوثيين على صنعاء وعدة محافظات، وزادت الاضطرابات في البلد فانشغل الجميع بالأحداث وتناسى الجميع ما حدث لوهيب، ومرت السنون وأنجبت جميلة أطفالها بشكل متتالٍ؛ فوجدت نفسها أُمّاً لثلاثة أولاد وفتاة بعد سبع سنوات زواج؛ وهي لا تزال بعمر السادسة والعشرين. فكرت جميلة من حين إلى آخر أن تذهب لرؤية أبيها وإخوتها من أمّها؛ وتمنت أن تُعرّفهم على أولادها، ولكنهم لم يطلبوا رؤيتهم، فهم منذ أن تزوجت لم يسألوا عليها، كأنها جارية لديهم وتخلصوا منها، فترفعت عن الاتصال بهم ربما خشيت أن يرفضوا زيارتها، فتقع في إحراج أمام زوجها وأمّه، وتقل قيمتها أكثر عندهم؛ فلاذت في حجرتها التي تنزوي فيها أغلب الوقت مع أطفالها، لم تتعرف على صديقات، ولم تنقاد لمجالس القات، ولم تتصادق حتى مع هدى.

*****

(7)

عادت زينب لعملها، وحاولت أن تتأقلم مع وضعها الغريب في بيت أهل صالح متأملةً أنها فترة مؤقتة ليس إلا، شعرت زينب رغم الهدوء ان هناك يأس في ملامح الزوجات هدى وجميلة، حزن خفي، تحفز للمشاكل وربما توتر داخل أرجاء الدار، طاقة سلبية تجمع بينهم رغم تظاهر الجميع ان كل شيء على ما يرام.

وبدأت جادةً في البحث عن عمل أفضل يسهل عملية انتقالهما إلى منزل مستقل، كان شعورها يتأرجح ما بين الأمل واليأس، ولم تعرف من أين تبدأ بالبحث، وهي تعلم أن فرص الأعمال هذه الأيام شحيحة، وأن من يملك عمل لا يجرؤ حتى التفكير بالتخلي عنه.

مرت الأيام والأسابيع وهي على حالها، تبحث هنا وهناك؛ فلا تجد حتى بصيص من الأمل، تسأل صالح عن الترقية، فلا يعطيها جواباً شافياً وما زال يأمل، ويُرجع أسباب التأخير إلى مساعي الحاسدين منه وخوفهم من قوة تأثيره في الشركة. وعندما حسبتها زينب؛ اكتشفت أن راتبها وراتب زوجها الحالي؛ يمكن أن يفي بالانتقال لسكن مستقل كانت قد أخبرتها عنه صديقة لها. أخبرت صالح بفكرتها وطلبت منه الإيفاء بوعده والعمل على الانتقال لسكن مستقل، وأخبرته أنها وجدت سكن مناسب وأن راتبه وراتبها سوف يمكّنهم من العيش بشكل جيد؛ فوعدها أنه سيخبر أمّه بعزمهم على الانتقال كما كان متفق عليه قبل الزواج. صعد صالح إلى طابق الأمّ، وجلست زينب تنتظر بحجرة التلفاز مرتديةً

حجابها الذي لم تكن تخلعه إلا في حجرتها، وبعد مرور وقت قصير؛ فُتح باب البيت ودخل عبد الله (كان لديه مفتاح للبيت)؛ وهرول إلى أعلى. استغربت زينب ولم تفهم ما حدث، وبعد قرابة النصف ساعة نزل عبد الله وصالح؛ ووقفت زينب في انتظارهما؛ وسمعت عبد الله يصيح في وجه أخيه:

- لا داعي لئن تكون قاتل أمك، ما مشكلتك أن تبقى في هذا البيت، وهيب وعماد بقيا فيه ولديهم أطفال، أما أنت فلا يجب أن يكون لديك مشكلة. كان صالحا مطاطئاً رأسه ولكنه رد على أخيه:

- لقد كان شرط الزواج ووافقت أمّي عليه.

لم يرد عبد الله؛ وأسرع بمغادرة المنزل.

فهمت زينب ما حدث، وأدركت أن حديث زوجها لأمّه قد سبب لها أزمة صحية، وعرفت أن هذا هو أسلوبها لإحكام سيطرتها على الأمور. حاولت زينب مناقشة زوجها بما يجب أن يكون عليه الحل، ولكنه قاطعها وأخبرها أن كلام عبد الله سليم؛ وهذه الفترة لا أحد يضمن بقاء الوظيفة؛ وأنه من الغباء دفع نقود إيجار منزل بالوقت الذي يمكن لهم السكن مجانا.

- مجانا؟!! ردت زينب، وأكملت..

- ولكنك تدفع لها كل راتبك و..

قاطعها صالح قائلا:

- لا تنسي أننا نعيش في منزلها؛ ونطبخ طعامنا مما تحضر لنا.. صمت قليلاً ثمّ أكمل:
- ظروف البلد لا تسمح بالرفاهية! وخرج.

سرحت زينب بكلامه؛ وفكّرت لِما تبدو حياتها وحياة كل جيلها هكذا بهذه الظروف، أية رفاهية؟!! هل السكن بسكن مستقل صار رفاهية؟ هل إيجاد عمل بتخصصها صار رفاهية؟ لِما تغيرت الحياة هكذا من حولها؟

*****

عبد الله عبد الوهاب هو الأخ الأكبر في العائلة، طويل القامة ممتلئ الجسم، ظهرت بداية الصلع على رأسه، وكان معتاداً على الملبس الوطني، ولم يكن يلبس البنطال والقميص إلا فيما ندر. لعب دور الأب لإخوته منذ سن مبكرة، تعوّد الصرامة والقسوة إذا لزم الأمر في تعامله مع إخوته رغم أنه لا يكبرهم كثيرا، أخذت إشراق النصيب الأكبر من تسلّطه وفرض قراراته عليها حتى عندما كان في السعودية وقبل أن يعود بمجرد أن قامت الحرب في 2015.

فقد شعر أن من واجبه أن يكون مع أمّه وإخوته في هذه الظروف، كما توقع أن عمله في بلد بينه وبين بلده حربٌ لن يكون آمناً ولا يضمن استمراريته، فعاد بعكس أسراب المغادرين من اليمن مع بداية الضرب من قِبل ما يسمى "التحالف" على صنعاء عبر منفذ الطوال الحدودي بين اليمن والسعودية، ووصل مع أسرته أخيرا إلى صنعاء بعد رحلة شاقة.

عندما هدأت الأحوال في اليمن واعتاد الناس ما تجلبه الأيام من ضربات موجعة على البلد، فتح عبد الله شركة (استيراد وتصدير) صغيرة لعدة منتجات بين اليمن والسعودية بالتعاون مع الشركة التي كان يعمل بها سابقا هناك، وضم أخاه وهيب للعمل معه بعد أن خسر عمله إبان الحرب.

*****

ذات يوم سمعت زينب في الشركة عن استقالة أحد المحاسبين عندما وجد فرصة سعى لها في السعودية فلم يتأخر، ورحل خلال ثلاثة أيام من تقديم استقالته، وكان من الواضح أنه رتب أموره منذ وقت مبكر، فكّرت زينب أن الوظيفة شاغرة وبإمكانها أن تقدم لها وتجرب حظها، أخذت إعلان الوظيفة الذي طبعته بنفسها بصفتها السكرتيرة، وعادت إلى البيت وهي سعيدة منتظرة إبلاغ صالح بالخبر. وبالفعل جاء صالح من العمل وجلسا يتناولان طعامهما؛ وأخبرته عن الفرصة الجديدة التي ستقدم لها، وعن تشجيع مديرها لها، وحرصهم على توظيف من يعرفونه ويثقون به نتيجة حساسية المشروع الذي سيبدؤون فيه. نظر صالح للإعلان فترة طويلة، ثمّ قال:

- لا أعتقد أن لديكِ أياً من متطلبات الوظيفة؛ ولا أظن أن بإمكانكِ الفوز بها.

فاستغربت من كلامه؛ وأخبرته أنها لن تخسر شيئاً إذا قدمت، فوظيفتها الأصلية باقية إن لم تفُز بوظيفة المحاسبة. فعاد يقول وهو ما زال يدقق بالإعلان:

- لا أعتقد. وأكمل:
- زينب لا نريد أن نخسر هذه الوظيفة، أنها ممتازة جدا وقد فقدت الأمل بالترقية، لِما لا أقدم أنا على هذه الوظيفة، لديّ الخبرة المطلوبة والمتطلبات المكتوبة هنا.

صعُقت زينب! ولم تدرِ ماذا تقول، تأملت صالح طويلا ولم ترُد. عاد صالح للحديث وهو ينظر إليها:

- لا أعتقد ان مجرد سكرتيرة تتحول إلى محاسبة وضمن هذا المشروع الكبير، إن المدير يريد أن يسخر منكِ بتحريضكِ على التقدم للوظيفة وهو متأكد أنكِ لن تفوزي بها.

فكّرت أن تقول له أن المدير ليس ذلك الشخص الذي سيشجعها على التقديم للسخرية؛ وأنه رجلٌ جيد؛ ولكنها لم تقل شيئاً. قامت لرفع أطباق الطعام وذهبت لغسلها وعادت بالقهوة، وجلسا لشربها، وكان صالح قد فتح جهازه وبدأ بإعداد السيرة الذاتية بما يناسب الوظيفة المُعلن عنها، متجاهلاً كل مشاعر الحزن والغضب التي شعرت بها زوجته. لم يُحزنها خسارة هذه الوظيفة بقدر ما أحزنها أسلوب صالح معها، فلأول مرة يسخر منها ومن عملها على أنّها "مجرد سكرتيرة"، ولأول مرة يتجاهل مشاعرها بهذا الشكل البشع. لقد فهمت زينب خلال الفترة القصيرة من زواجها أنه كثير الاعتزاز بالنفس والتقدير العالي للذات؛ وهذا لم يزعجها ولكن ما كان يزعجها هو التقليل من شأنها، ومن مقترحاتها،

والتعليق بسخرية على أي حوار يدور بينهما، ولكنها تحاول دائما التجاهل والتغاضي معتقدة أنها بذلك تحمي زواجها من أي شقاق –لا قدر الله.

كبتت زينب كل مشاعرها داخل قلبها، سكتت تماما، شعرت أنها ضعيفة، مسلوبة الإرادة كما لم تكن هكذا من قبل، ماذا يحدث؟ هل ستتغير شخصيتها بالتدريج حتى تصبح تابعاً؟ ما هكذا تربت، وما هكذا كانت تجد نفسها، كبتت زينب كل ما دار ببالها وانتظرت متى تُنفِس عنه؟!!

*****

كان اليوم التالي هو يوم الجمعة؛ وقد اعتادت أن تذهب بيت أهلها لتناول طعام الغداء دون صالح، وكذلك هدى كانت تذهب إلى منزل أهلها، فتبقى جميلة وحدها تتناول الطعام مع أولادها، كما هو معتاد لديها في أغلب الأيام، ولكن ليوم الجمعة مرارة أكثر، فزوجها يتناول طعامه مع إخوته وأمّه في الطابق العلوي، وتشعر بنفسها منبوذة لا أهل ولا أصدقاء ولا زوج يقف إلى جانبها ويخفف عنها وحدتها.

بكّرت زينب بالذهاب وهاتفت شقيقتها أن تُبكِر أيضا حتى تستشيرها بموضوع قبل تجمُّع العائلة. وعندما اختلت زينب مع أختها زهرة في حجرتهما السابقة التي بقيت على حالها، أخبرت أختها بكل ما جرى في أمر الوظيفة الجديدة، وعن صدمتها من تصرُف صالح. تجمّعت الدموع في عينيها وهي تحاول كبتها، وطلبت منها النصيحة. لم تدرِ زهرة ماذا تقول، فهي لا تريد تحريض أختها

على زوجها وهما لا يزالان في بداية الزواج، وبنفس الوقت شعرت بالظلم التي تشعر به أختها ولم ترِد التقليل من شأنه. طال الصمت فتركت زينب للدموع التعبير عن القهر الذي تشعر به، بكت زينب ونفسّت عن كل الألم والحزن الذي تشعره، بكت بكاءً مرا؛ ولم تستطِع التوقف وشعرت بحرقة وألم في قلبها، جاء الأب والأمّ وزينة أيضا مفزوعين عندما سمعا نحيبها، فسكتت زينب وهي تشعر بالندم لافتضاح الموضوع، ولكن كان على زهرة قصّ الحكاية كاملة.

أيّدت الأمّ موقف صالح؛ ووجدت أنه أحق بالوظيفة وأنّها لمصلحتهما معا، ولم يعط الأب رأيه ولكنه احتضن ابنته؛ وقال لها:

- ستجدين فرصة أفضل منها؛ أنا متأكد، دعي هذه الوظيفة قربانا لحياتك الجديدة.

ابتسمت زينة بسخرية؛ وقالت:

- تظل جهود النساء فقط لتمضية وقت، لا جدية بها.

نظر إليها الأب بعتاب، بينما ردت الأمّ:

- نعم، إن العمل مخصصٌ للرجال بالدرجة الأولى.
- لِما يا أمي؟ سألتها زينة.
- لأنهم رجال مسؤولون عن البيت وتوفير متطلبات الأسرة؛ ولو أنجبت أختكِ فقد تترك الوظيفة. ردت الأمّ بغضب (وكانت تتجنب النقاش مع زينة). فردت عليها زينة بنفس واحد ودون توقف:

- هذا شأن النساء دائما ولكن إذا لم يأتِ الرجل؟ وإذا ترك أو مات؟ أو لم يجد عمل؟ كيف ستستقيم الحياة؟ من سيدير أمور البيت والأطفال؟ إذا لم تكن الفتاة مؤهلة، قادرة على العمل ومجابهة تحديات الحياة وإعالة نفسها، وأيضا ماذا لو لم تتزوج الفتاة أو طُلقت، أو وجدت نفسها مضطرة لمساندة زوجها وأطفالها إذا تزوجت، فالنتيجة أنها ستكون دوما عبءً على أبيها وأخيها وزوجها وأبنائها، وستكون نقمة عليهم؛ لأنها دائما الجانب الأضعف لا تستطيع المساعدة، عاجزة!

صمت الجميع بعد محاضرة زينة الحادة وكانت صادقة ولكن لم يكن الجميع مستعدين للاعتراف بالحقيقة الواضحة من خلال آلاف القصص من حولهم، وعموما لم يفضل أحدٌ منهم مناقشتها.

اقتنعت زينب على مضض بتجنب خلق مشاكل مع صالح، وأيّدت اقتراحه، وأخبرت مديرها بالموضوع، وأكدّ لها المدير أنه سيتابع ملف صالح شخصيا وسيزكيه طالما هو من طرفها، فلم تعلق ولم ترغب بالتعبير عمّا يخالجها من قهر. أخبرت صالح أن المدير سيهتم بملفه وأنه وعدها خيرا، متوقعةً أنّها بهذا الكلام ستثبت له أنّها ستدعمه؛ وأنّها غير حزينة لخسارة الفرصة، ولكن كان لصالح رأيٌ آخر؛ فرد عليها:

- زينب هذه وظيفة مهمة، إذا حصلت عليها فذلك فقط لأني مؤهلٌ لها، ولن يكون لمديركِ دور لدعمي من أجلكِ.

صمتت واحتارت فيما أخطأت وهي التي ترغب فقط بإظهار حماسها ودعمها له. مرت الأيام تلوها أيام متشابهة، الكل يسعى وراء قوت يومه، يتناقل الناس أخبار تبدأ بـ "انفراج وشيك للأزمة اليمنية"، "بنود اتفاقية تنص على كذا وكذا " ولا شيء يحدث على الواقع، عاش الناس على الأمل بحدوث معجزة؛ وبنفس الوقت اعتادوا على اليأس؛ وعاشوا برتابة وركود.

*****

اقترب شهر رمضان وزينب في بيت زوجها، وقد عرفت من هدى وجميلة أن الوضع سيختلف، فكلهن دون استثناء– زوجات الأبناء وإشراق مع المعاونة– يتقاسمْن العمل فيما بينهن. قبل رمضان تم فتح المجلس وإخراج كل فراشه لحوش المنزل لتعريضه للشمس ثمّ نفضه؛ وغُسلت ستائره، وهكذا تم تجهيزه لتناول الفطور الجماعي. وكان عليهن كلهن دخول المطبخ دون تحديد وقت معين، يعددن ما تقترحه العمّة؛ ويشمل بالطبع طبخات رمضان المعتادة من شوربة رمضان، الشفوت، والأطباق المتنوعة والحلويات. ورغم حرص الجميع على احترام الشهر الفضيل، إلا أن مشادّات كثيرة كانت تحدث بين هدى وجميلة أحيانا؛ بسبب تأخُر إحداهنّ في إتمام المطلوب منها حتى تتمكن الأخرى من إتمام عملها، وأحيانا بسبب ضجة الأطفال والإزعاج الذي يسببونه في المطبخ القريب من حجرة العمّة، وكل واحدة تتهم أطفال الأخرى في البدء بالإزعاج. كما كانت هدى تشكو أنها تعمل بالخارج وهي صائمة؛ وتعود متعبة؛ ومع ذلك يظل عليها

نفس عمل جميلة دون مراعاة لجهدها خارج البيت. ورغم أن زينب أيضا كانت تعمل خارج البيت إلا أنها كانت دائما تحاول تلطيف الجو وتهدئة النفوس؛ وتذكير هدى أن لجميلة مسؤولية أربعة أطفال، وأحيانا تنأى بنفسها، وتترك المكان لهن، وتعود لاحقا لإتمام المطلوب منها.

كان الفطور يتم بشكل جماعي في المجلس وقد فُرشت سفرة أرضية، تكفيهم جميعا. ورغم أن زينب معتادة على العمل الشاق في رمضان منذ أن وعت على الدنيا، إلا أنها لم تعتدْ على مثل ذلك التجهيز الضخم الذي كان يتم في منزل أهل زوجها، ولم تعتدْ الطباخة لعدد كبير من الرجال والنساء والأطفال. ولكن تظل لمة الإفطار الجماعي لها نكهة خاصة؛ وتُشع بجو الأسرة؛ وحتى ضجة الأطفال تصبح محببة وقد هدأت النفوس بعد تناول الطعام.

ومثلما تمر الأيام، مرّ شهر رمضان وأقبل العيد، استقبلت زينب أباها وأخاها والمحارم من الرجال في المجلس، وهكذا كان وضع هدى، بينما استقبلت العمّة أولادها لتهنئة العيد في حجرتها، ولم يعُد لها من المحارم إلا أخٌ واحد وصل نهاية اليوم من كوكبان؛ أمّا جميلة فلم تستقبل أحد. في عصر يوم العيد، ذهبت زينب لمعايدة أهلها وكذلك هدى وبقيت جميلة، قضت بعض الوقت مع عمتها وإشراق والمعاونة في المجلس الصغير في حجرة العمة، خرجت بعدها إشراق لملاقاة صديقاتها؛ وقضت جميلة بقية اليوم في الصالة وقد أنزلت الحجاب على أكتافها

تشاهد في التلفاز الصغير برامج العيد؛ وقد رصّت بعضاً من الحلويات على الطاولة الصغيرة، حلّق حولها أطفالها، ومرّ يوم العيد.

ولكن اليوم الثاني للعيد كان مختلفا، اقترحت زينب تنظيمه، إذ اجتمعت الزوجات الثلاث جميلة وهدى وزينب والشقيقة إشراق، وأحضرنْ الحلويات والقهوة وقعدن في المجلس، ودعونْ سميرة– أيضا؛ ولكنها اعتذرت وكذلك العمّة، بينما جلست المعاونة قُرب الباب تتناول القات وتتابع حديث النساء؛ وتعلق بمرح؛ وقد أسعدتها الجمعة الجميلة كما أطلقت عليها، وكان الأطفال يعلبون مع بعضهم في حوش المنزل ويتوجهون للمجلس كلما رغبوا ببعض الكعك أو الحلويات.

- إنّها فكرة جميلة أن نجتمع على الأقل في مناسبة العيد. علقت هدى.
- نعم، قالت جميلة وابتسمت بحياء، وأكملت؛ بالنسبة لي اليوم هو أول أيام العيد، فأمس قضيته وحدي.

وأكملت جميلة:

- شكرا لك زينب؛ لم تتم هذه اللمة في أي عيد سابق، إني مسرورة على الأقل من أجل أولادي.

ردت المعاونة من مكانها قائلة:

- إن أهم ما يميز العيد هو اللمة، شاهدوا كيف ابتهج الأطفال بها مع أنهم معا دائما.

وهكذا دار الحديث من هنا ومن هناك؛ عن مشاكل العمل وظروف الحرب وغلاء المعيشة، تابعت جميلة الحديث باهتمام وهي تحاول أن تستوعب ظروف الحياة حولها والتي نادرا ما تتحدث عنها مع الآخرين. ومع أذان المغرب نهضن جميعهن، وقامت المعاونة بتنظيف المجلس وأغُلق مرة أخرى.

*****

حصل صالح على الوظيفة؛ وبقدر ما كان هذا خبر رائع– نقله صالح لزينب، وهو يحتضنها ويدور فيها بحجرتهما– بقدر ما كان الخبر التالي فاجع:

- لا يصح يا زينب أن نعمل بنفس الشركة، ونفس الإدارة، لن يكون ذلك جيداً ومقبولاً، فمن المعروف أن السكرتيرة تكتب كثيراً من التقارير التي تعتبر بعضها سريةً للغاية، وأنا موقعي حساس لا أريد أي شُبه.

لم تفهم زينب، وبقيت ملامحها عالقة على الابتسامة إثر دورانها بحضن زوجها، لم تستوعب مقصده، فتساءلت وهي تتوقع أنها بالتأكيد لم تفهم جيدا:

- هل تقصد أن أترك العمل؟!
- نعم، وقد لمّح لي بذلك المدير؛ وهو يهنئني على الوظيفة.

لا، لن تصدق هذا الكلام، ولن تقتنع به، لم يلمح له مديرها؛ ولم يتطرق لهذه الفكرة. صمتت ولم تنبس ببنت شفة. وغادرت لإحضار طعام الغداء. استأذنت من صالح أن تذهب لمنزل أهلها؛ لأن أمّها متوعكة قليلا وترغب بالاطمئنان عليها، فوافق، وغادرت وهي تعلم أن هذه هي أول كذبة في حياتها

الزوجية، والكذبة ليس بتوعك الأمّ فقط، ولكن الكذبة أنها ذهبت لمنزل شقيقتها زهرة؛ وليس لمنزل أمّها.

استقبلتها زهرة بترحاب مترقب، وعندما وصلت رمت نقابها إلى الأرض، وخلعت حجابها وكذلك العباية وألقت بهما على الأرض أيضا، كأنها تشعر بحمى وتريد التخفيف ممّا تلبسه؛ فطنت زهرة لحال أختها ولكنها آثرت السكوت، أعدّت القهوة وبعضاً من الكعك؛ وجلست بجانب أختها.

- لا أريد أن أبكي، قالت زينب، وأكملت:
- لا شيء يستحق البكاء.

وانهارت باكية، حضنتها زهرة وتركتها تواصل بكاءها، وعندما هدأت، بدأت تقصّ على أختها ما دار بينها وبين صالح، وكيف ستضطر لخسارة عملها الذي تعتبره السند الحقيقي والذي لن يتعوض فقط من أجل ألّا تكون مع صالح في نفس المكان؛ وأخبرتها وسط بكائها عن عدم عثورها على عمل عندما فكرت بتغيير عملها. هدأت زينب قليلاً؛ ومدت يدها لتتناول كعكة؛ ولكن بمجرد وضعها في فمها، شعرت بتقلب معدتها، أسرعت إلى الحمام، تستفرغ كل ما أكلته من طعام الغداء. عادت تجلس وتتناول قهوتها دون الكعك، وهي شاردة تفكر بالوضع الجديد الذي عليها أن تعيشه. نظرت إليها زهرة مطوّلاً؛ وقالت لها:

- زينب؛ هل أنتِ حامل؟

وهكذا، وكما يقال زاد الطين بلة! وأصبح لحمل زينب مبرر جديد لصالح يدّعم طلبه أن تترك العمل وترتاح في البيت. وافقت على مضض؛ وقدّمت استقالتها بحجة الحمل، ولكنها بدأت بالبحث عن عمل بكل مكان؛ وهذه المرة بحثت بتصميم عن عمل كمحاسبة.

مرّت الأيام التالية بشكل سيء، أصبح مزاجها متعكراً بشكل دائم، نشب خلاف كبير بينها وبين عمّتها، حاول صالح إصلاح الأمر بين زوجته وأمّه، وبينه وبين زوجته، التي عافت أشياء كثيرة؛ وعافت وجوده بجانبها، وانتقلت لقضاء بعض الوقت في بيت أهلها.

لم يكن خبر حمل زينب الوحيد من نوعه في الأسرة، فقد فاجأت زهرة الأسرة بخبر حملها هي أيضا بعدها بأيام قليلة.

- لا يا أمّي؛ لم يعمل مازن الفحوصات ولم أتلق أي علاج، إنها مشيئة الله، قالت زهرة لأمّها وهي تكاد تطير من الفرحة.

شعرت زهرة أن الله قدّر لها التسليم بقدرها، وأنها بخروجها من دوامة الانتظار؛ واتجاهها للعمل والدراسة ومواصلة الحياة دون توقع ودون يأس؛ قد كتب لها أن تنال ما تتمناه.

كان الخبر مفاجأة لمازن، لم يستوعب معنى أنه قريبا سيكون أباً، كما سعُدت أمّه بالخبر؛ وأخبرتهما أن الله استجاب لدعائها الدائم لمازن، الذي كان أصغر أولادها، والأقرب لقلبها للطفه ووداعة طباعه.

- هل سنستطيع أن نهتم بالطفل يا زهرة؟ قال مازن وهو لم يستوعب بعد الخبر.

فردت زهرة بثقة:

- بالطبع سنستطيع، وسأكون أفضل أمٍّ، وستكون أفضل أب يا مازن.

فتهلل وجهه بالفرحة، ووضع يده على بطنها متسائلا:

- هل حقا يوجد هنا ولد؟

ضحكت زهرة، وردت:

- وربما بنت.

فقال مصححا كلامه:

- نعم .. نعم أقصد طفل لنا.

كذلك غمرت الفرحة كل أفراد الأسرة وخاصة زينب التي خالجها الإحساس بالأسى عندما حملت قبل شقيقتها المتزوجة قبلها. أشرقت حياة أمّ زينب؛ ونذرت نفسها للاهتمام بابنتيها، وطلبت من زهرة التوقف عن الدراسة؛ والانتقال لبعض الوقت إلى منزلهم، ولكن زهرة رفضت كلا الأمرين.

- لِما عليكِ الدراسة طالما صرتِ حامل؟ وسيكون عليكِ مهام كثيرة بعد الولادة! قالت الأمّ.

- لن أتوقف عن الدراسة يا أمّي، يجب أن أكمل المشوار لنفسي وللطفل الذي في بطني.

- لم أفهم.
- لا شيء مقلق يا أمّي، تغيرت الحياة وزادت تحدياتها، دعيني أدير حياتي مثلما أريد.

لم تكن زهرة تعتبر الدراسة تضيّع للوقت والفراغ الذي كانت تشعر به، بل كانت بالنسبة لها تحدياً كبيراً وحلم احتل كل تفكيرها وجهدها، فلم ترضخ لطلب أمّها وأمّ زوجها، أما مازن فلم يناقشها بموضوع الدراسة فقد ترك لها القرار كما هو معتاد على ترك كافة المسؤوليات على الآخرين من حوله؛ وحتى خبر الحمل كان خبراً سعيداً بالدرجة الأولى حتى لا يجد نفسه مضطراً لعمل الفحص الذي لم يرغب بعمله.

عادت زينب لمنزل أهل زوجها بعد فترة بسيطة، وتوقفت عن البحث على عمل، بينما واصلت زهرة الدراسة؛ وهي تسابق الوقت حتى تتمكن من إجراء امتحاناتها النهائية قبل الولادة.

*****

في تلك الفترة التي بقيت فيها زينب في المنزل، صادفت جميلة خلال يومها عدة مرات، كلاهن يتجولن في المنزل بحرص مرتديات حجاباتهن لأن ظهور أحد الأزواج وارد، فكانت تساعد جميلة بالاهتمام بالطفلة الصغيرة، عندما تكون مشغولة في المطبخ فتترك الطفلة تبكي. شعرت زينب أن على اكتاف جميلة هموم

كثيرة، وأن في عينيها حزناً دفيناً. لم تتمكن من جرّها للحديث، وتقبّلت مساعدة زينب على مضض، ولم تفتح لها قلبها مطلقا في ذلك الوقت.

كانت جميلة متحفزة لكل زوجات الأبناء؛ وتعتبرهن بلا شك عدوات كما هو مُشاع عن زوجات الأشقاء، دون أن تسأل نفسها لماذا؟ كانت تنقل بعض مما تعرفه عنهن بالصدفة إلى العمّة؛ وهي متوقعة أنها بذلك ستكون المفضلة لديها. كانت تعتني بالعمّة أكثر منهن، وتمارضها إذا مرضت بينما تكون إشراق مشغولة بالدراسة، وهكذا كانت تسعى بكل جهدها وأكثر من طاقتها للفوز برضاها.

ذات يوم وجدت زينب جميلة تتصفح قصة أطفال خاصة بأحد أبنائها، مستغرقة بتأمل القصة ذات الرسومات الملونة، وعندما اقتربت منها زينب، لمحت دمعة محجوزة في عينيها، والغريب أنها استجابت لسؤال زينب عن حالها.

- يلجأ ابني لزوجة عمه هدى حتى تقرأ له هذه القصّة، أحاول قراءتها ولكني بالطبع لا أستطيع.
- ولكن لِما لم تدخلي صفوف محو الأمية عندما جئتِ إلى صنعاء، سألتها زينب؛ فردت:
- لقد أخبرتني إشراق في أول زواجي ووعدتني بالمساعدة، ولكني حملت وتعبت بالحمل ولحقه حمل آخر فلم أتمكن من التعلُّم.

وعادت تُكمل ما كانت كما يبدو ترغب بإخبارها عنه:

- هل تعلمين!؟ لقد سمعها ياسر وهي تقول لزوجها أنه صعبٌ عليها الاهتمام بأبنائي وابنها؛ ومتابعة دروسهم، لم أحزن منها فلديها الحق؛ ولكن ابني ياسر حزن كثيراً وصار يرفض سؤالها عمّا لا يفهمه.
- ولكن دراسة ياسر ستتأثر إذا لم يجد من يشرح له ما استصعب عليه فهمه.
- لو كان وهيب يعطي أولاده وقتا، كان يمكن أن يساعد ياسر وإخوته؛ وما كنا سنحتاج لهدى.

سكتت زينب قليلا، ثمّ قالت:

- أخبري ياسر أن يأتي إليّ إذا احتاج أن أشرح له شيئا ما.
- نظرت إليها بامتنان، ثمّ قالت:
- لو كنت تزوجت بالقرية لكان وضعي طبيعي.

وسمحت لدمعتها بالتدحرج على خديها، وتركت المكان لشؤونها الكثيرة؛ وهي تمسح دموعها بكُم ثوبها. اعتادت جميلة على وجود زينب صباحاً في البيت؛ واستأنست بها وبدأت تعتاد وجودها وترتاح له.

تخطت زينب فترة الحمل الأولى، وأصبحت بحالة صحية جيدة، لم يكن صالح يُشركها بأخبار العمل، ولكنه كان يكرر كلما تحدثا عن العمل أنه لا يتوقع كيف كان يمكن لها أن تنجح لو أخذت هذا العمل" ليس عملاً محاسبياً معتاداً، أنه مرتبطٌ بمشروع تعمل عليه عدة جهات"، لم تعترض، ولِما عليها الاعتراض، وليس

هناك فائدة من الجدال الذي سيحدث لو عارضته، فقد كان يعتقد أن كلامه هو الصحيح، ولا يرغب بأي جدال، ولا يقبل رأياً آخر على أي حال.

*****

عرفت زينب من إحدى صديقاتها بوجود معهد يقوم بعمل دورات تدريبية في "إدارة المشاريع" خاصة بالمحاسبين، وأن هناك دورة خاصة بالنساء ستبدأ قريبا. شجعتها صديقتها على حضور هذه الدورة، وأخبرتها أنها بمكان قريب منها؛ وهي دورة صباحية لمدة ساعتين فقط ولثلاثة أيام في الأسبوع، وأغلب المسجلات فيها مبعوثات من أماكن عمل مختلفة؛ ولكن يمكن لزينب إقناع أصحاب الدورة بضمّها لهم. وبعد أن تأكدت زينب أن رسوم الدورة مقبولة فاتحت زوجها برغبتها حضور هذه الدورة:

- مجهود على الفاضي وإهدار للمال، قال صالح، وأكمل:
- إذا كنتِ ترغبين بتطوير مهاراتك؛ فأقترح عليكِ أخذ دورة بمهارات السكرتاريا حتى تتطوري بمهنتكِ الأساسية.

لم تقتنع برد صالح ولم ترضخ، واستغربت كيف غيّر رأيه وهو من شجعها قبل الزواج أن تهتم بالحصول على عمل في تخصصها. استمرت بطلبها كل يوم دون ملل ودون الاهتمام بكل تعليقاته الجارحة ومحاولاته للتقليل منها. وأخيراً وافق شريطة سؤال أمّه والحصول على موافقتها.

- ولكن لماذا علينا أخذ رأيها بشأن خاص بنا؟! سألته زينب مستغربة.

- ألسنا ساكنين في بيتها؟ لذا علينا دائما أخذ رأيها، رد عليها صالح وصعد إلى طابق الأمّ.

وافقت العمّة على مضض، ووافق صالح ربما تخلُصا من إلحاحها، وسجلت زينب بالدورة، وكان لها ما أرادت. كانت مدة الدورة شهراً– ثلاثة أيام في الأسبوع–؛ ولكن المعهد كان لديه أيضاً دورات مختلفة في إدارة المخاطر، إعداد الميزانيات، وفي كتابة التقارير المحاسبية، فسجلت لمدة أربعة أشهر كل تلك الدورات على التوالي.

تفاجأت جميلة من غياب زينب الصباحي، وعندما أخبرتها بالتسجيل في الدورات الأربع، استمعت لها مبهورة، لم تتخيل إمكانية ذلك، وقالت لزينب بكل صراحة:

- لم أتوقع أن النساء يمكن لهن دراسة هذه الدراسات، ولكن ماذا عن الحمل؟

- سأكون قد انهيت الدورات عندما يأتي موعد الولادة.

صمتت جميلة، وشردت للحظات ثم تركت المكان دون أي تعليق. لم تنجُ زينب من تقريع العمّة من غيابها الصباحي، وذات يوم وبينما زينب وجميلة في المطبخ يعدان طعام الغداء الخاص بكل منهما، دخلت العمّة وهي تنفخ بقوة كأنها لا تستطع التنفس بشكل طبيعي:

- أعلم أن الزوجة لها أن تخرج من بيتها؛ ولكن بالمقابل نهاية الشهر تحصل على نقود؛ أمّا تخرج من بيتها وآخر الشهر تدفع نقوداً، فهذا غباء.

رمت كلامها على زينب؛ ولكن زينب أخذت الموضوع ببساطة وجاوبت:

- ستأتي النقود لاحقا يا عمة، لا تقلقي.

أعجب الكلام جميلة التي كانت تُعد بعض الطعام لصغيرتها، ولم تنسَ بالتعليق:

- أهم عمل للمرأة هي تربية الأطفال والاهتمام بالزوج.

ونظرت إلى عمتها مزهوّة بتعليقها، ولكن العمّة صرخت قائلة:

- لقد أهرمتِ ابني قبل الأوان، نحن في المدينة وفي حالة حرب؛ وأنتِ أنجبتِ الأولاد وراء بعض وكبلتِ ابني بمسؤوليات جسيمة لم يعُد قادراً على رفع رأسه من العمل؛ ورغم ذلك لم تحسني أي عمل يساعد بمصروفات البيت.

وخرجت وهي تتمتم بكلمات لم تفهم منها شيء لا جميلة ولا زينب. نظرت جميلة إلى زينب ولم تنبس ببنت شفة؛ وأخذت طعام ابنتها وانصرفت، وبقيت زينب تكمل طبخها؛ وهي تشعر بالأسى على جميلة.

كانت الأحداث في البلد تتوالى بشكل مستمر، تم تشكيل مجلس القيادة الرئاسي برئاسة (رشاد العليمي) ونقل صلاحيات الرئيس هادي إليه. وبذلك

طُويت صفحة الرئيس المنتخب، أهتم البعض وتفاءل بقدوم تطور إيجابي، ولكن أغلب الناس لم يعودوا يأملون من الحكومة الشرعية التي تتنقل بين الرياض وعدن أي خير، انشغلوا بحياتهم والبؤس المُحاط بهم.

شغلت زينب نفسها بالدورات والمذاكرة؛ فمرت شهور الحمل هادئة، لفت نظر صالح تلك الكتب والمراجع التي تدرسها؛ ولكنه كان يزيحها عن نظره وهو يرسم بسمة سخرية من اهتمامها "سوف يأتي الولد وينسيكِ كل هذا الهراء" قال لها وهو ينظر إليها ساخرا.

لاحظت زينب في الأيام التي تُصادف بقاءها في المنزل صباحا وبقاء هدى أيضا، أن العلاقة بين هدى وجميلة متوترة دائما، ربما لأن هدى دائمة السخرية من طريقة اهتمام جميلة بأولادها، فأصبحت جميلة حادة الطباع معها ولا تترك لها مجال إلا وردت بأقسى العبارات، حتى أنها عابت عليها قلة الأولاد، ولم تتقبل أن هذه هي خطتهم في ظل هذه الظروف، ولكنها اعتبرتها حجج واهية "إن الأطفال عز وجاه للأب" قالت جميلة مبتسمة بسخرية. لم تنظّم زينب إلى أيٍ منهما؛ وحرصت على علاقة طيبة مع كلتيهما. لكن زينب– كما عرفت سريعًا ولاحظت مع الأيام– أدركت أن لحظات التأخير في الحمام، حين تدخل جميلة لغسل أحد أطفالها، كانت شرارة لمشادّات لا تنتهي، يتعالى فيها صوت هدى معترضةً بأن الحمام ليس حكراً على جميلة وأولادها. ولتفادي تلك المناوشات، كان الرجال غالبًا ما يلجؤون إلى حمام الطابق العلوي حيث تسكن والدتهم– إن

وجدوا الحمام مشغولًا. كانت زينب تدرك تمامًا أن هذه المشاكل ستطالها يومًا ما إذا ما طال بها المقام في هذا البيت، خاصة إن أنجبت ابنًا أو أكثر، وكانت تعلم أيضًا أنه لا مفر منها؛ فجميلة ترى أن لها الحق في استخدام الحمام لأطفالها، وهدى لا تقل عنها في ذلك الحق، لتبقى زينب عالقة بين حقوق تتقاطع وصراعات لا تهدأ لأسر تعيش تحت سقف واحد وبحيّزٍ ضيق.

*****

كانت زينب معتادة أن تدرس في حجرتها، لكن إذا كان لدى صالح عملٍ ما، فأنه يأخذ مكانه المعتاد على الأريكة، فتقوم بجمع كتبها والصعود بها إلى السطح حيث الطابق الذي لم يكتمل. وهناك، تختار زاوية تحجب عنها حرارة الشمس وعيون البشر، وترخي حجابها لتمنح شعرها فرصة للهواء وضوء الشمس، وتبدأ في الدراسة.

تمكث هناك حتى تبدأ الشمس في الانحدار نحو الأفق، فتغلق كتبها وتغرق في تأمل مشهد الغروب، تسرح بأفكارها، تبني أحلامًا وتعيشها في خيالها، حتى يدفعها غياب آخر خيط من أشعة الشمس إلى مغادرة المكان.

وذات يوم، وبينما كانت تدرس على السطح، سمعت طرقًا خفيفًا على الباب، فإذا بها جميلة أطلّت تحمل معها ابنتها وصينية القهوة والكعك.

سألتها بخجل:

- هل تأذنين لي بمشاركتك هذا المكان الجميل؟ لم أفكر بالصعود إلى هنا من قبل مع أنه متنفسٌ جميل.

ابتسمت زينب ورحبت بها، فجلستا تتبادلان أطراف الحديث العام.

أخذت جميلة تتصفح كتب زينب وهي تبتسم وتسألها:

- هل تفهمين كل هذا حقًا؟
- ضحكت زينب وردّت بخفة:
- أحاول...

أغلقت زينب كتبها وجلست تأكل الكعك وتشرب القهوة مع جميلة وتداعب ابنتها. تأملت زينب المكان حولها وقالت:

- فعلا يا جميلة لو يتم الاهتمام بهذا المكان وتنظيفه من مخلفات البناء؛ فسيكون مكاناً جميلاً خاصة أنه مستور بجداره غير المكتمل.
- نعم، خاصة أننا– اقصد أنا– لا أخرج كثيراً؛ فسيكون مكان مناسب لقضاء الوقت خارج الحجرة.

تأملت زينب جميلة طويلا؛ وتأسفت أن تعيش حياة هكذا، ليس لها أهل ولا صديقات ولم تحظ بزوج محب، وفكرت "هذه هي الحياة؛ وكل واحد فيها يأخذ قدره، ترى كيف سيكون قدرها؟".

عندما أكملت زينب الدورات؛ وأخذت الشهادات، ورتبت ملفها، وجعلته جاهزاً للبحث عن عمل بعد مرور فترة بعد الولادة. وعادت مرة أخرى للبقاء في

المنزل وهي في شهرها السابع، وسعُدت جدا بشهاداتها التي يمكن أن تعوض غياب خبرتها بالعمل المحاسبي، وشاركت زوجها فرحتها، وهي تستعرض الشهادات ذات الخط الذهبي:

- هل تعلم يا صالح؟ يمكن لنا –أنا وأنت– أن نفتح مكتب خاص، فكثير من الشركات أصبحت تتجنب توظيف محاسبين بشكل دائم، وتلجأ لمكاتب محاسبين خاصة.

ضحك صالح، ورد قائلا:

- حتى لو قدمت استقالتي لن يقبلوا بها، أنهم فخورون جدا بوجودي بينهم، حتى أن مديركِ قد قال لي أي كارثة لو كنا وظفنا زينب وخسرناك.

بحلقت زينب فيه بدهشة، وسألته:

- وهل سمحت له بإهانة زوجتك؟

- أنه يقول الحقيقة، أنا نفسي لا أعرف لَما يُسمح للنساء بدراسة المحاسبة!

نظرت زينب إليه طويلا، فصرخ بها:

- ماذا؟ لا تنظري إليّ، فهذه هي الحقيقة.

خرج صالح وهو ما زال يضحك؛ وعادت بذاكرتها إلى ما قبل الخطوبة "لِما لا تنظري إليّ يا زينب". لِما تغيّر صالح هكذا؟ أم أنها ببساطة لم تتعرف عليه جيدا، ولم تلحظ هذا الزهو والغرور في شخصيته والذي يقلل من شأن كل من

حوله. فكرت زينب ". صالح ينشر طاقة سلبية قوية، عليّ أن أعزل نفسي عن احباطاته، مالم سوف أفقد الثقة بنفسي سريعا، وسأحبط وستضيع مني الفرص دون أن ألحظ".

*****

وجدت زينب نفسها في فراغ كبير، ولديها متسعٌ من الوقت في الصباح؛ فقررت أن تساعد جميلة في تخطي ثقل الهمّ الذي تعيش فيه، خاصة عندما قصّت عليها هدى ما حدث عندما تزوجت أمل ابنة عمّ زوجها وما كان من اضطراب وهيب. كانت العلاقة جيدة بينهن، قصّت عليها زينب كثيراً عن طفولتها، فتحمست جميلة وقصّت عليها لأول مرة معاناتها في القرية، ولم تحرص على تجميل حياتها، فتحت قلبها لزينب وأخبرتها كيف كانت زوجة الأب تقف في طريق إتمام أي خطوبة تحظى بها. بدأت جميلة تتخلص من تحفزها تجاه زينب كما كان تحفزها تجاه كل من تقابلهم، وشعرت أن زينب لا تنوي بها شر ولا تسخر من بساطة معرفتها. عرضت زينب على جميلة أن تقوم بتعليمها حروف اللغة؛ وتدريبها على الكتابة والقراءة؛ ففرحت بالخبر وابتهجت، وكان شرط زينب أن تخبر زوجها وتأخذ منه الإذن تجنبا لحدوث أي مشاكل ممكنة. وافقت جميلة، وانتظرت عودة زوجها بفارغ الصبر؛ وهو ما لم تعتَد عليه في حياتها.

- زينب ترغب بتعليمي القراءة والكتابة.

قالت لزوجها وهي خائفة من ردة فعله التي لا تعرف كيف ستكون، فلم يسبق لها أن طلبت منه أمرا واحدا يخصها، كل ما بينهم كان عن الأولاد ومطالبهم. نظر إليها وهيب نظرة مطوّلة، ولاحظ ملامحها الطفولية ونظرات الرجاء في عينيها، اعتصر الألم قلبه؛ وشعر أنها ظُلمت بقدر ما ظُلم هو، كلاهما ليسا في الحياة التي يرغبونها، سألها بإشفاق:

- كم عمركِ يا جميلة؟

فاجأها السؤال، ردت:

- أعلم أني كبيرة على التعليم! لا أدري، ربما خمسة وعشرون أو أكبر بقليل ولكن.."

وقبل أن تنهي كلامها؛ رد وهيب:

- لا، ما زلتِ صغيرة يا جميلة، لا ذنب لكِ ما زلتِ صغيرة، لا مانع لديّ.

لم تصدق جميلة أنه وافق بسهولة؛ ابتهجت ورقصت الفرحة في عينيها لأول مرة منذ زمن، نظر وهيب إليها؛ وتمتم:

- أعتذر يا جميلة، ليس لكِ ذنب.

سألته عمّا يقصد، فرد:

- لا شيء، لم أقل شيء مهم.

"لا يهم ماذا قال، المهم أنه وافق؛ وسوف أتعلم فك طلاسم قصة ابني ذات الرسومات الملوّنة" فكرت جميلة وهي فرحة مسرورة.

وهكذا بدأت زينب تعليم جميلة الحروف بمباركة إشراق، التي أسعدها تحقيق ما كان عليها عمله منذ زمن، وبسخرية هدى التي لم تتوقع نجاح التعليم بهذا العمر، متجاهلة تجارب الحياة التي درستها في علم النفس وخبرتها بالنفس البشرية وقدراتها الكبيرة، ولكن في أعماقها كانت تشعر بغيرة من جميلة؛ فهي أجمل وأصغر منها. أمّا العمّة فلم تعر الأمر اهتماماً؛ وأخبرتهما فقط بعدم إهمال واجباتهما الأساسية وهي الأزواج والأولاد.

*****

أصبحت جميلة شغوفة بتعلُّم القراءة والكتابة، فحرصت على فهم وإدراك كل ما كانت زينب تُعلّمها، وتمكّنت بسرعة من تعلُّم الحروف؛ وبدأت بتكوين بعض الكلمات، وهي تضحك مبتهجة؛ وكأنها طفلة تكتشف الحياة لأول مرة. فاجأت إشراق جميلة، أن أعطتها اللوح الرقمي الخاص بها، والذي لم تعُد بحاجة له بعد امتلاكها جهاز حاسوب، وعلّمتها التعامل معه بعد أن أنزلت فيه تطبيقات تعلُّم اللغة العربية للأطفال والكبار. استوعبته جميلة بسرعة وأتقنت التعامل معه بفترة وجيزة؛ وسهّل هذا التطبيق على جميلة قطع شوط كبير في تعلُّمها، وخاصة بعد أن دخلت زينب شهرها التاسع؛ واستعدت للذهاب لبيت أهلها.

عاشت جميلة مرحلة جديدة من حياتها، نظرت إلى الحياة نظرة مختلفة، ولاحظت أنها قضت وقتا طويلا تناصب هدى العداء، وتشغل نفسها في تصيُّد أخطائها ونقلها للعمّة، لم تنظر كل هذه السنين لنفسها هي، لم تهتم بحياتها، لم

تحاول كسر جمود زوجها تجاهها، وخاصة بعد أن علمت عن ماضيه. سرحت جميلة مع الحروف وشعرت أن هناك حياة لم تعشها، ومهما اعتادت حياتها في القرية، كان عليها أن تحاول التأقلم مع الحياة في المدينة، والسعي وراء تعليمها ومساعدة نفسها على تخطي جهلها وقصور تفكيرها. وفكرت أنها لو ناصبت زينب العداء؛ فربما ما كانت هي أيضا مدّت لها يد العون.

عندما ذهبت زينب قرب الولادة إلى بيت أهلها، جاءت زهرة أختها التي اقترب شهر ولادتها أيضا، اعتاد الأزواج زيارة زوجاتهما بشكل متقطع، ولكنه مقبول. ومرّت الأيام، وعاشت زينب وزهرة في جو عائلي جميل افتقداه كلاهما منذ أن تزوجتا.

(8)

خلال فترة غياب زينب في بيت أهلها، حدثت أحداث كثيرة، كان أولها تخرُج إشراق من كلية الطب، فبارك لها الجميع، وحظيت أسرة الأستاذ عبد القادر بنفس الفرحة؛ حيث تخرجت زينة من الجامعة أيضا في نفس الفترة. أمّا الحدث المؤسف فكان مرض والد جميلة، التي كان عليها أن ترحل على عُجالة إلى قريتها، فذهبت مع السائق الذي اعتادت العمّة الاستعانة به في مشاويرها القليلة، وذهبت معها المعاونة حرصاً من العمّة على الاهتمام بالأطفال الأربعة. لكن زوجها لم يذهب معها؛ رغم أنها تجرأت وطلبت منه ذلك أو على الأقل توصيلها والعودة؛ إلا أنه أعتذر دون إعطاء سبب واكتفى بإعطائها مبلغاً من المال، كان أكبر مبلغ قبضته يدُها.

شعرت جميلة بالأسى كونها لا تملك الزوج الذي يقف معها ويساندها عندما تحتاج إلى سند، كانت تتمنى أن يأتي وهيب معها وأن تظهر في القرية مع زوجها، تفتخر به وتلمح الحسد بعيون نساء القرية اللاتي كنْ يسخرنْ من تأخرها بالزواج. لِما لمْ يأتِ وهيب، وتركها تذهب وحيدة كما هي بالواقع؟! لم تكن جميلة قلقة على أبيها في أعماقها، فهي ساخطة عليه وعلى موقفه تجاهها، ورضوخه لزوجته في تهريب العرسان الذين كانوا يتقدمون لها. لم تلقَ منه حنان ولم تشعر بحبه في أي يوم، حتى عند وفاة أمّها، غضب عليها وعلى إخوتها وكأنهم السبب في وفاتها،

ومع ذلك لم يمر شهر إلا وقد تزوج، لم يعُد يرعاهم ولا يهتم بهم؛ وكأنها وأشقاءها رحلوا مع الأمّ.

سارت السيارة في اتجاه شبام كوكبان، ابنها الكبير ياسر يجلس في المقعد الأمامي فرحاً بأنه رجل الرحلة كما أوصاه أبوه، وفي المقعد الخلفي جلست هي وبجانبها ابنها الأوسط وفي حضنها ابنتها الصغيرة، وتحمل المعاونة الابن الآخر. أكثر من عشر سنوات عندما سارت في هذه الطريق عروساً، خالية الذهن من كل شيء، كيف ستكون حياتها؟ كيف ستتعامل مع زوجها؟ كيف ستنجب وتهتم بأبنائها؟ رغم أنها كانت في التاسعة عشر من عمرها إلا أنها تُعتبر كبيرة بمقاييس الزواج في القرية. صعدت السيارة الجبال وجميلة غارقة في ذكرياتها، فمرت من أمام مخيّلتها، صورة أمّها وهي في عنفوان شبابها وصحتها، والتي أنجبت خمسة من الأولاد وبنت واحدة هي جميلة، وماتت إثر ولادة أخيرة متعسرة، ومات معها الجنين.

تذكرت جميلة حياتها في القرية؛ وكيف كانت تنهض من الصباح الباكر، مع فتيات القرية يقطعنْ مسافات طويلة لجلب المياه التي غالباً ما تكون ملوّثة، ولم يكن باستطاعتهن إلا حمل كميات صغيرة لا يمكن أن تلبي احتياجات الزراعة وتنظيف المنازل والشرب، رغم أنه لم يكن صالحا للشرب أساساً، وبعدها بدأت بعض الأسر شراء الماء من صهاريج متنقلة، ولم تكن أسرة جميلة ضمن هذه الأسر المحظوظة. وكانت جميلة تعود من مشوارها الطويل، لتقوم بالمهمات الأخرى

المنتظرة لها، فبعد انتهائها من بعض الأعمال المنزلية، تخرج لتكمل مهامها في الخارج، فتجمع علف الماشية والحطب اللازم لإشعال النار؛ وتعود بعدها للمنزل لمساعدة زوجة أبيها وكذلك الاهتمام بإطعام إخوتها الصغار من أبيها. لم تكن لها علاقة خاصة مع أبيها ولا مع إخوتها من أمّا الذين كان عليهم أيضا العمل في أعمال متنوعة. تأملت جميلة كيف كانت حياتها في القرية وتساءلت في نفسها " لو كنت تزوجت في القرية هل كانت حياتي ستكون أفضل"؟ وعادت تتذكر حديث صاحباتها اللاتي تزوجنْ وهمسهنْ لبعضهنْ البعض عمّا يدور من غزل بينهن وبين أزواجهن وعن دفء اللقاء والمودة التي بينهن وبين رجالهن. "أين أنا من هذا كله، أعيش داخل حجرة وأراقب زوجي كأنه رجلا غريبا لا أعرف ماذا يدور في عقله؟ ومن يسكن في قلبه؟" وعادت تذكر حادثة زواج بنت عمه فشعرت بغصة وألم ونزلت دموعها؛ فأرْخت غطاء النقاب وحجبت عينيها.

*****

وصلت جميلة القرية، وبمجرد اقتراب السيارة من منزل والدها، خرجت زوجة أبيها لاستقبالها، وقام السائق بإنزال الهدايا من السيارة – من صناديق الفواكه المتنوعة والحلويات والزبيب واللوز–، وعند رؤية زوجة الأب للمعاونة أظهرت الاحتفاء أكثر؛ وأخذت جميلة في حضنها وهي تبكي وتخبرها بمصابها بمرض الأب. دخلت جميلة الدار وقادتها زوجة الأب إلى حجرة فُرشت مخصوص

لها ولأولادها وكذلك بقيت المعاونة فيها. أعطت جميلة المبلغ الذي أعطاها وهيب لزوجة أبيها، فزاد اهتمام الزوجة بجميلة وأبنائها والمعاونة.

تشبث الأطفال بعباية أمهم وهم يجوّلون أبصارهم بالمكان الغريب، وجميلة تكرر بصوت عالٍ "أنه منزل جدكم يا أولاد، ليس بمنزل غريب". سحبت المعاونة الأطفال، وذهبت جميلة لرؤية الأب، كان أبوها سابقا قوي البنية، ينعم بصحة جيدة، ولكن الرجل الراقد على فرش في الأرض، كان ضعيفا، حفر المرض على وجهه علامات العمر أكثر ممّا توقعت، وجهه نحيفا حتى أن عظامه أصبحت بارزة لا يغلفها إلا الجلد، شاربه ودقنه كثيفان–ممّا دل على الاهمال–، والهالات السوداء أسفل عينيه لا تبشر بأمل. بكت جميلة بكاءً صادقاً وذرفت الدموع حزناً على أبيها وحزناً منه، كيف مرت كل هذه السنيين ولم يسأل عنها؛ وهو يعلم أن المسافة لا تتعدى بضع ساعات من قريتهم إلى صنعاء. تمتم الأب بكلمات لم تستطِع جميلة فهمها، ولكنها دنت وقبّلت جبينه وسألته عن صحته، فكأنما في تلك اللحظة ميّزها، سمعته يقول لها بصوت واهن " جميلة ابنتي، كيف حالك يا ابنتي؟" وكانت الزوجة قد حذّرت جميلة بأن حالته أصبحت حرجة وربما لن يعرفها.

سعدت جميلة أن أباها عرفها وابتسم لها ابتسامة متعبة، ولكن في اليوم التالي نظر إليها نظرات أنهكها المرض؛ وسمعته يقول لها "كيف حالك يا عاتقة؟ لقد اشتقت لكِ" فصُدمت فهذا هو اسم أمّها! وامتعضت الزوجة ولم تُعلِق.

مات الأب في اليوم الثالث لمجيء جميلة، وعلا البكاء والنواح، وتجمّع الرجال أمام المنزل وتوافدت النساء، وأخذت المعاونة الأطفال وحجزتهم في الغرفة. تلقت جميلة العزاء من عشرات النساء، لم تستطع تمييزهن وكانت تعلم أن بعضهنْ بالتأكيد صاحبات الطفولة. أرسلت لزوجها خبر الموت برسالة على الهاتف، وانتظرت الرد، ولم يأتِ وظل الهاتف أسود الشاشة لا أحد يسأل عنها.

*****

وفي اليوم التالي وقبل الدفن بساعات، جلست جميلة على الدرج أمام منزل أبيها، ساندة ظهرها على جدار المنزل بحجابها دون نقاب كما كانت معتادة في حياتها بالقرية، وكان أولادها أمامها يلعبون مع أطفال القرية، تأمّلتهم "كم هم مختلفون عنهم! وحتى عن أولاد إخوتها" قطع عليها التأمل غبار سيارة من بعيد يسابقها الأطفال جريا أمامها وهم يصرخون "جاءوا أهل صنعاء .. جاءوا أهل صنعاء". نهضت بسرعة ودخلت الحجرة وقلبها ينبض "هل جاء وهيب؟". نظرت من النافذة ورأت السيارة قد وقفت أمام المنزل؛ وبالفعل نزل منها وهيب وهو يرتدي الزي الوطني، ثم انحنى للمقعد الخلفي يساعد أمّه على النزول، فابتهج قلبها وشعرت بالفرحة تغمره، واخفت ابتسامة لاحت على وجهها؛ وتذكرت أن أباها متوفى حديثا.

جاء وهيب وأمّه لواجب العزاء وجلبوا معهم ثلاثة خراف، استقبلهما إخوة جميلة الكبار وأعمامها وقادوا وهيب إلى مقيل العزاء في بيت أحد كبار رجال

القرية، ودخلت العمّة وسط حفاوة نساء القرية. تلقت جميلة عبارات التعزية من عمّتها، وجلست في مجلس العزاء، بينما المنزل يعج بالنساء اللاتي يساعدنْ في تحضير وليمة الغداء.

تم الدفن وسُمع ترتيل القرآن من مكبرات الصوت في أنحاء القرية الصغيرة، بينما المنشدة تقرأ القرآن في مجلس النساء، واقترب المغرب وتفرقت النساء جميعهن، وجاء وهيب فأُخلي له الطريق؛ فدخل إلى حجرتها وحضنها معزياً؛ فانفجرت بالبكاء المُرّ على صدره حتى تقطّع نفسَها؛ ولم تعرف ما إذا كانت تبكي أباها أم تبكي حالها. بعد صلاة المغرب في ذلك اليوم؛ طلبت المعاونة من جميلة –برجاء– أن تقبل بالعودة مع العمّة ووهيب الذيَنَ كانا يستعدان للعودة؛ وأكدت العمّة على كلامها بضرورة عودة ابنها الأكبر للمدرسة. وهكذا عادت معهم نهاية أول يوم عزاء. وهذا كان كافيا لجميلة؛ ورد اعتبار لكل المرارة التي شعرت بها عندما كانت في القرية، فقد حظيت باهتمام زوجة أبيها، وتقدير إخوتها وأعمامها؛ والأهم حسد صاحبات الطفولة التي لم تميّزهنْ وهنْ ينظرنْ إلى وسامة زوجها؛ والمظهر الذي ظهر به مع كل تلك الخِراف والهدايا. شعرت جميلة وهي تقترب من صنعاء أن رحيل أبيها يقطع آخر صلة لها بالقرية؛ وأن إخوتها لم يحتفوا بها بشكل يوحي بدوام الصلة؛ فكلٌ منهم غارقٌ في هموم الحياة.

****

(9)

لم تستمر الفرحة بتخرج إشراق وقتا طويلا، حيث أخبرتهم برغبتها بالسفر إلى مصر ودراسة البورد، حتى تستطيع العمل بشكل أفضل. فانقلبت الدنيا ولم تقعُد، وكما هو معتاد نُقلت الأمّ إلى المستشفى بعد شجار كبير بينها وبين ابنتها، وجاء عبد الله وأكد لإشراق أن هذا الموضوع مرفوض بكل الأحوال ولا يخص موافقة الأمّ من عدمها. تشاجرا دون نتيجة، وصرخ بها عبد الله أن السفر بمفردها غير مسموح؛ ويكفيها العمل بأي مستشفى إذا أرادت وشهادتها تكفي للعمل. اعتكفت اشراق في حجرتها وقتا طويلا، وعادت أمّها من المشفى، فعادت للاهتمام بها، وهي ما زالت غاضبة ورافضة قرار أخيها. ولكنها بدأت فعلاً بالعمل كمتدربة بأحد مستشفيات العاصمة؛ وهي ما زالت على غضبها ورفضها لقرار أخيها، إذ كانت تشعر أنها أصبحت بعمر يؤهلها لاتخاذ قراراتها بنفسها. كانت إشراق الشقيقة الوحيدة، على قدر كبير من الجمال، طويلة القامة، بيضاء البشرة ولها شعر طويل ناعم. فتاة طموحة، عانت مثلها جيلها من اضطراب مرحلة الجامعة ولكنها واصلت بجد واجتهاد. علاقتها بأمّها قوية، لم تعرف في حياتها أبا، فأخذت من حضن أمّها الملاذ الوحيد، بينما علاقتها بإخوتها كانت متوترة؛ تمر بمشادّات متكررة، كان أولها عند رفضهم أن تدرس الطب لأنه– وفقا لرأيهم– قد يعطل من زواجها، ولكنها أصرّت ولم تتزحزح قيد أنملة عن رأيها، فوافقوا على مضض. وثانيها مشادّات مع قدوم كل عريس ترفضه، كانت أمها

تساندها أمام إخوتها؛ وعندما ينفردان بأنفسهما في طابقهما العلوي تحاول إقناعها.

*****

شعرت زينب بآلام المخاض، اتصلت لزوجها للحاق بهم إلى المشفى، ولدت بيسر بعد ساعة من وصولها وأنجبت أكرم، عكس زهرة التي لحقت بأختها بعد أسبوع؛ وعانت من آلام الولادة ساعات طويلة، وفي الأخير تمت الولادة بعملية قيصرية. رضيت أمّهما بما أصاب زهرة واعتبرته نصيبهم من الحسد، فكلتا البنتين أنجبتا ذكوراً وصحتهما جميعا جيدة، وهذا ما جعلها تُبلّغ زوج زهرة وأمّه المنتظرين خارج الغرفة بأن زهرة أنجبت بنتاً طرداً للحسد؛ وعندما دخلا غرفة زهرة– وكانت قد فاقت من تخدير العملية:

- أمجد سنسميه أمجد قالت زهرة بصوتٍ واهن؛ إذ كانت تعلم أنه ذكر بحسب الفحص الأخير؛ فتبادل مازن وأمّه النظرات.

فقالت أمّها:

- نعم، إنه ولد، لقد أخطأت الممرضة وقالت لي أنها بنت. احتار مازن قليلا، وتبسمت أمّه متفهمةً للحركة.

استقبل منزل الأستاذ عبد القادر جلسات النساء اليومية، وتم تجهيز المجلس مع كل ما يتطلب لجلسات القات، وجاءت أمّ عبد الله وأمّ مازن وكذلك هدى وجميلة، وقدمت النساء المقربات الهدايا للمواليد، وأقامت الأمّ بعد عشرة أيام

من ولادة زهرة يوم "دخول المكان"؛ وتم عمل فراشيَن مرتفعين في حجرة المقيل؛ وزيّن الجدار بصور للآيات القرآنية وأواني الشذاب، ووضعت الأمّ المصاحف الصغيرة تحت مخدات زهرة وزينب؛ وانشغلت أغلب الوقت بقراءة المعوذتين. كما أحضرت "مُنشِدة" وهي التي تنشد أناشيد دينية. وهكذا قامت الأمّ بكل ما هو مطلوب منها بفرحة كبيرة، ناظرة إلى ابنتها زينة وداعية لها بقدوم النصيب الجميل.

*****

عادت زينب إلى بيت أهل زوجها، وبقيت زهرة أسبوعين زيادة بقرب أمها، وذلك للتمكن من الاستعداد لامتحان نيل الماجستير، فحظيت بنهاية المطاف بالابن وشهادة الماجستير؛ واستعدت لخطة جديدة. لم يكن مازن الرجل المشجع لطموح الزوجة؛ ولكنه كان لا مباليا، وطالما لا يوجد هناك شيء يتطلب منه القيام به فهو لا يمانع، ويفضل التوجه لجلسات الأصدقاء، وتناول القات دون أن يزعجه أو يشغله شيء؛ ولتعمل زوجته ما تشاء.

وجدت زينب نفسها أمام كائن صغير، عليها هي فقط إطعامه والاهتمام به، أخافها الوضع وشعرت بكثير من الرهبة، "صار لدي ولد، هذا هو حلمي الدائم، هل سأستطيع أن أربيه كما كنت أحلم؟ هل سيكبر أمامي يوما بعد يوم؟ هل سيكون له إخوة؟" فكرت زينب وهي تنظر إليه وهو نائم لا يعرف من الحياة سوى أنه غادر ذلك المكان الآمن. "لن يتحقق حلمي طالما بيتي هو هذه الحجرة فقط، لن يتحقق حلمي إذا كان عليّ إرساله لحجرة الأطفال عندما يأتي أخوه أو

أخته، يجب أن أحسم هذا الأمر، ولكن لِما لا يتفهم صالح هذا الموضوع؟ هل أنا فقط من ترى في الوضع هذا غرابة؟" عادت الحيرة لنفس زينب؛ وشعرت بمرارة لعجزها.

*****

(10)

دخلت هدى حجرتها، فوجدت جواز سفر مُلقى تحت مخدة السرير، كان جواز سفر زوجها؛ فتحته ولاحظت أنه تم تجديده حديثا، لم تفهم، جلست بطرف سريرها تتأمل الجواز؛ وكأنه سوف يبوح لها بسره، لِما يجدد زوجها جوازه؟ هل ينوي السفر؟ هكذا دون إعلام أحد!! راودتها تلك الأسئلة ولم تجد إجابة، تذكرت أمس وقبل أمس، حاولت أن تتذكر شيئاً ما في الأيام الماضية يمكن أن يوحي بسفر فلم تجد. دخل عماد الحجرة وبيده حقيبة سفر جديدة متوسطة الحجم؛ نظرت إليه هدى وبيدها جواز السفر؛ ثمّ استقرت نظراتها على الحقيبة، وتساءلت:

- ما الموضوع؟ رد ببساطة:
- لا شيء سوف أسافر إلى تركيا، وجد لي صديقي عملا جديدا هناك.
- وأنا والأولاد؟
- حاليا أنا فقط، لا أستطع تحمُّل كلفة تذاكركم كما أني لا أعرف إلى أين سأصل.

وضع الحقيبة الجديدة، وغادر خارجاً من البيت متجنباً نقاشها، وقفت مذهولة ومرّ بخيالها ذكرى صوت أمّها "ألم يحن الوقت لنذهب معك؟"، "لا مجال لذلك، أصبري". ففكرت "هل سترث حظ أمها؟، فتربي أولادها وحدها؟، سيعيشون يبحثون عن أب في كل الرجال؟، هل ستستطيع الصبر كما صبرت

أمّها؟، وستفني حياتها وحيدة، زوجة مع وقف التنفيذ، أسرة تعرج في الحياة وتتوسل زيارات شحيحة من أب يسعى خلف شيءٍ ما لم تتبينه؛ ولم تستطع طوال حياتها أن تفهم من أبيها لِما هو ليس معهم؟ هل ستُرزق بمزيد من الأطفال مع كل زيارة؟ وسيأتي وقت يفرح صغارها بالهدايا ويجهلون معنى الأب كما جهلت هي! "يجب أن أتصرف، أبذل جهدي حتى لا أترك أسرتي تتشرد"، هكذا قررت هدى.

لم يطول الأمر بهدى اتخذت قرارها بسرعة، هاتفت عبد الله تحسباً لما قد يحدث للعمّة؛ وقصّت عليه أمر السفر، وصعدت إلى عمّتها رغم طلب عبد الله منها التريث حتى يصل، وقفت أمام العمّة وعندها لم تتمالك دموعها؛ فشهقت وبكت وغطت وجهها بيديها؛ وقالت:

- عماد سيسافر.

لم تستوعب العمّة ولم تدرك ما القصد من السفر، هل لأيام؟ أم ماذا؟ جاء عبد الله وطلب من هدى الانتظار حتى يفهم الجميع ما حدث، ونزل الجميع إلى أسفل؛ وانتظروا عودة عماد وهم يتناقشون ويتباحثون في موضوع لا يعرفون عنه إلا كلمة "السفر". لم يمر وقت طويل حتى عاد عماد؛ وكان أخوه قد هاتفه بضرورة القدوم، ووجد زوجته وأمّه وأخاه بانتظاره بالصالة يحيط بهم أولاده وأولاد وهيب، بينما بقيت جميلة مع ابنتها في حجرتها؛ ترهف السمع، وكذلك كانت زينب.

- لم يكن عليكِ تكبير الأمر يا هدى، نظر إليها عماد ساخطا، وعاد يقول:
- سأجرب حظي، صديقي وجد لي عمل إداري في مدرسة يمنية فتحت في تركيا.

سكت قليلاً يلتقط أنفاسه المتقطعة؛ وعاد يكمل حديثه وهو ينظر إلى هدى بغضب:

- كنت سأخبركم عندما أحصل على الفيزة، أنا أجهز نفسي فقط، لقد مللت من الحياة هنا، لا مجال لتحقيق أي طموح، بلد يُقتل فيها كل شيء، دعوني أجرب حياة أخرى.
- ونحن؟ سألته هدى.
- ستلحقون بي، عندما أجهز وضعي هناك.

وعاد ونظر إلى عبد الله؛ وقال:

- ألم تغِب في السعودية خمس سنوات؟ لِما أصبح الآن نفس العمل خطأً؟

عادت زوجته تكرر بصوت واهن:

- ذهب مع زوجته! تغافل عنها عماد؛ وذهب يجثوا أمام قدمي أمّه؛ وقال لها:
- أرجوكِ لا تقومي بالتمثيلية المعتادة لقد سئمنا المشفى، اتركيني أدرك أحلامي، بذهابي إلى تركيا سأتمكن من النجاح، دعوني أجرب.

سكت الجميع ولم يجرؤوا على قول أي شيء، وتطلّعت هدى بهم ثم بزوجها؛ وعادت بنظرها إلى أولادها وانتحبت بصوت عالٍ مخفية وجهها بطرفي حجابها.

جاءت إشراق من الخارج؛ وفتحت الباب فهالها التجمّع الغريب، فزعت فسارع عبد الله لتطمينها؛ وأخبرها بما حدث بشكل مختصر، وكانت هدى قد هدأت عندما حلّق حولها أطفالها مفزوعين. كانت ردة فعل إشراق غريبة؛ فقد وجدت نفسها تضحك بشكل هستيري، وصرخت وسط ضحكاتها:

- عماد يترك زوجته وأولاده وعمله حتى يلحق بأحلام لا ملامح لها ومع ذلك فطلبه مُجاب؛ والكل رضخ له، وأنا طالبت بالسفر لإكمال دراستي في دولة عربية، لا زوج ينتظرني ولا أطفال يفتقدونني، ومع ذلك لم يقبل أخي وأمّي بالموضوع! وتركاني أعاني من ضياع الفرصة التي كانت ستدعم مهنتي ومستقبلي.

وعادت لنوبة الضحك، ثمّ أكملت وهي تمسح دموع الضحك الذي بدأ يتحول إلى بكاء:

- مثال واضح على الظلم الذي نعاني منه نحن النساء، كل جهودنا ودراستنا كذبة لا أكثر نلهو بها حتى يأتي النصيب عندها تبدأ حياتنا الحقيقية.

عادت تصرخ، وهي تنظر إلى أخيها عماد:

- ألا تشفق على أبنائك؟ دع عنك زوجتك؛ فواجبها الصبر ثم الصبر كما هو مكتوب لجنس النساء، ألا تشفق على أولادك تتركهم أيتام الأب وأنت حيٌ تُرزق؟ من أجل ماذا؟ ما هو الإنجاز العظيم الذي يستحق هذه التضحية؟

وصعدت إلى حجرتها غاضبة. خرج عماد وعبد الله من البيت، وبقيت الأمّ وهدى وسط الظلام الذي زحف مع اقتراب المغرب، خرجت زينب من حجرتها وأخذت الأطفال إلى الحجرة؛ وكان الصغير قد بدأ يبكي لبكاء أمّه وعمته إشراق، تنبهت هدى لنفسها وغادرت إلى حجرتها وهي تشعر أن ما قالته إشراق هو بالضبط ما رغبت بسماعه من عماد، ونزلت المعاونة لمساعدة الأمّ –التي كانت حزينة وعاجزة لأول مرة– على العودة لحجرتها.

سافر عماد بعدها بأسبوعين دون أن يتردد حتى ولو للحظة.

- إني اختنق في هذه البلد يا أمّي سامحيني، لم أعد أطيق هذه الظروف، كل يوم أزمة، كل يوم انفجار، كل يوم إهانة، لم أعُد أستطع الحياة هنا، إني فعلا اختنق" قال عماد لأمّه مودعاً لها، بينما زوجته لم تسامحه، أخذت أولادها وذهبت تحتمي من حرقة الوداع في بيت أهلها، فسافر دون وداع.

*****

- لقد ورثتُ حظكِ في الحياة يا أمّي، ولم أرث قوتكِ، قالت هدى لأمّها.

ردت عليها وهي حزينة لملامح حظ ابنتها:

- تلك أيام يا هدى ولّت، لقد عاد أبوك وانتهت رحلة الغربة.

ردت هدى بصوت ساخر:

- عاد!! وهل عاد شبابكِ، هل عادت أيامكِ، هل ذهب كل تعبكِ ومعاناتكِ يا أمّي؟

- هذا نصيبنا يا هدى، لا تتذمري، لا أحد يستطيع الهروب من نصيبه، لا نملك القدرة على محاربة القدر، أولادنا أهم شيء في حياتنا، لا تظلمي أولادكِ.

سألت هدى أمّها:

- أمي، هل فكرتِ بالطلاق عندما طالت غربة أبي؟

شهقت الأم! ورددت:

- طلاق!!؟؟ لا، بالطبع لا.

- لِما! هل خشيتِ من لقب مطلقة؟

ردت الأمّ:

- رغم قلة زيارات أبيكِ، فقد كنت أودّه، وأنتظر مجيئه، أنه أبو أولادي، لم أفكر بالطلاق نهائيا ولم يخطر ببالي، ولم أتذمر من حالي، لقد كان خيرا لي أن انتظر زيارته من ألّا انتظر شيء.

عجبت هدى من قناعة أمّها؛ وتمنت أن تمتلك بعضاً منها، ساد الصمت فترة وجيزة سمعا خلالها اقتراب خطوات داخل الحجرة.

- وهل تتوقعين يا ابنتي أني كنت سعيداً في غربتي.

قالها الأب وهو يدخل الحجرة، فتفاجأت كلاهما، وشعرت هدى بالإحراج، غطّت وجهها، وقالت:

- لا أقصد يا أبي، فقط لا أريد أن يعيش أولادي مثلما عشت أنا، دون حنان أب. أجابها أبوها:

- لقد عشت سنوات كثيرة وأنا أعمل فقط من أجلكم يا هدى.. لم أجد عملا مناسبا في هذه البلد، الفرص شحيحة والرواتب ضعيفة، لم تكن لي أحلام مثلما لزوجكِ، كان حلمي الوحيد أن أوفر لكم ولكم فقط حياة لائقة، لم تكن لي حياة هناك يا هدى، عشت في حجرة صغيرة باردة خاوية من أصواتكم ووجودكم، إذا كان لي ذنبٌ يا ابنتي؛ فذنبي أني كنت أريد لكِ ولإخوانك أن تحققوا أحلامكم أنتم وليس أحلامي أنا، لقد عشت محروماً من دفء العائلة، حنان وحب أمكِ، وجودكم حولي، مشاركتي خطواتكم الأولى في الحياة، كل هذا حُرمت منه، وكلما مرت السنوات كلما زادت احتياجاتكم، فأواصل وأواصل إلى أن مرّ عمري كله.

نهضت هدى خجلة من نفسها، ضمّت أباها وقالت معتذرة:

- لقد كان غيابك صعب عليّ يا أبي، ولكني أقدر تضحيتك، سامحني يا أبي. وددت لو أشتري وجودك بيننا بكل مباهج الحياة، وبكت بحرقة في حضن أبيها؛ فضمّها وقال:
- مع ذلك لا أتمنى أن تكون حياتكِ شبيهة بحياة أمكِ، أنها أكثر من عانت.

بعد أسبوع من سفر عماد طلبت العمّة من هدى العودة؛ وقد شعرت بالشفقة عليها؛ فعادت وضمّت ابنها الأكبر إلى حجرتها، وبقي أولاد وهيب في حجرة الأطفال العلوية وحدهم؛ ومضت الأيام كيفما كان.

*****

(11)

مرت الأيام والشهور وزينب تبحث عن عمل فلا تجد، بينما تفرّغت زهرة لابنها؛ ولتأخذ قسطاً من الراحة بعد دراسة الماجستير. أخبرت إحدى الصديقات اللاتي تعرّفت عليهن زينب في الدورات، أن هناك وظيفة محاسبة في إحدى منظمات المجتمع المدني، وأن عيب الوظيفة هو ضعف الراتب؛ ولكن في حال وجود مشروع فالراتب يتحسن إلى درجة كبيرة خلال فترة المشروع. تحمّست زينب للوظيفة وهي المتاحة على أي حال، أخبرت زوجها، فوافق وخاصة أن الجمعية في شارع الزبيري ولا تبعد كثيراً عنهم. استعدت زينب لموعد المقابلة التي رتبتها لها صديقتها، وأخذت ملفها وذهبت.

مبنى الجمعية عبارة عن منزل متوسط، يحيطه حديقة شُذبت ونُسقت بشكل جميل، وعلى أحد جوانب الحديقة مجموعة من ألعاب الأطفال، كان الحارس رجلاً كبيراً بالعمر، يجلس على كرسي أمام البوابة يمضغ القات رغم أن الوقت كان لا يزال مبكرا، سمح لها بالدخول دون سؤالها عن أي شيء، صعدت عدد من الدرج ودخلت من الباب الداخلي للمبنى الذي كان مفتوحاً على مصراعيه، وبالداخل كان هناك خمسة مكاتب، اقتربت من أول مكتب وسألت عن رئيسة الجمعية، رحبت بها الموظفة وقادتها إلى مكتبها. مرّت المقابلة بشكل هادئ وودود، شرحت رئيسة الجمعية لزينب أن جمعيتها تهتم بتأهيل النساء ورعاية الأطفال، وتقيم الكثير من الدورات لهذا الغرض، ولديها كذلك قسم الإرشاد النفسي، وتعمل فيه

مرشدات نفسيات للمحاولة في مساعدة المتضررات من الحرب والصراع الذي يدور في البلد على التشافي، ومساعدتهن للعودة لممارسة الحياة. وأخبرتها أن الجمعية تعمل اعتمادا على التمويل لمشاريعها من المنظمات الانسانية الأجنبية أو المحلية، وكلما زادت هذه المشاريع كلما نهضت الجمعية. شعرت زينب بالانتماء للمكان، وسعُدت أن رئيسة الجمعية خاطبتها وكأنها قد تم قبولها بالعمل وما المقابلة إلا للتعارف.

بدأت زينب صفحة جديدة في حياتها، تأخذ أكرم إلى والدتها ومن ثم تذهب للجمعية والتي ينتهي دوامها في الساعة الواحدة ظهرا، وقد علمت زينب أن هذا التوقيت يكون فقط عندما لا يكون هناك مشاريع، أمّا في حالة وجود مشروع ما؛ فأن العمل يستمر أحيانا إلى الثالثة عصرا. عادت زينب للمطالبة باستقلال السكن؛ فوبخها زوجها وقال لها أن راتبه أصبح ضعيفاً؛ ولا يمكن لهما الخروج إلى منزل مستقل بشكل مناسب، كما أن المشروع الذي يعمل به قد شارف على الانتهاء؛ ولا يعرف ما سيكون عليه حاله بعدها. صارحته بصعوبة البقاء حبيسة غرفة، لا تستطيع دعوة صديقات ولا حتى أمّها، ليس لديها حرية الطبخ وحرية الحركة في المنزل؛ فلم يعِرها صالح أي اهتمام، وعاد يذكّرها بما تمر به البلاد؛ وأن السلامة هي الأهم في الوقت الحالي.

لم يعُد راتب عماد موجوداً، فطالبت العمّة من هدى أن تضع راتبها بدلا عن راتب زوجها، فلم تقبل فتشاجرا شجارا كبيرا لأول مرة، ولأول مرة لم تسعد

جميلة بهذا الشجار. وفي هذا الوقت ثابرت جميلة جاهدة على تعلُّم القراءة والكتابة، وتقدمت خطوات بمساعدة زينب وإشراق وحتى هدى مدت لها يد المساعدة، فأمددنْها بالكتب اللازمة وعلمنْها استخدام المصادر على اليوتيوب؛ فشغلها العالم الجديدة عن تصيُّد المشاكل أو الفرح لحدوثها. ورغم انشغالها، كان في أعماقها قلق وهي تلاحظ العلاقة الخالية من أي مشاعر بينها وبين زوجها وعزوفه التام عنها، كانت الحياة بينهما تسير بشكل روتيني، أشعرها أن شيئاً ما سوف يحدث؛ ولن يستمر هذا الهدوء إلى الأبد.

كبرت ابنتها الصغيرة والتحقت بالروضة، فوجدت جميلة نفسها وحيدة في الفترة الصباحية، وساد الصمت أرجاء البيت إلا من بعض الحركة في طابق العمّة، أسرّت جميلة لزينب رغبتها بعمل أي شيء، الخروج ولو لساعات محدودة من المنزل، فكرت زينب وأتتها الفكرة عندما تذكرت أن هناك مشاريع محلية في الجمعية تهدف إلى محو أمية النساء، فاقترحت عليها الدخول لهذه الصفوف، وقد تتمكن من الدخول لصف متقدم طالما قد أتقنت الكثير مما هو مطلوب. فرحت جميلة كثيراً وانتظرت زوجها لأخذ موافقته، بادرته عندما أنهى لبس جلابيته المنزلية:

- هناك فرصة لأن أتعلم في صفوف دراسية، قالت جميلة لزوجها، أخذت نفسًا عميقا، وأكملت:

- إنها بنفس الجمعية التي تعمل بها زينب، لقد ألحقتُ ابنتنا بالروضة، وصار لدي فراغٌ كبيرٌ، لا أدري ماذا أعمل به.

كان قلب جميلة يخفق بقوة، فمازالت تتهيب من أي نقاش مع زوجها. أنهت جميلة كلامها ووقفت تنتظر ردا، ولكنه ببساطة قال لها:

- لا أدري عن أي جمعية تتحدثين؟ ولِما عليكِ الخروج دون داعٍ؟ كيف ستذهبين وكيف ستعودين؟"

شرحت له بعبارات مختصرة– وكأنها تخشى أن يمل سماع حديثها– ما شرحت لها زينب بأنها ستذهب معها وستعود معها.

- خذي موافقة أمّي، قال وهيب وهو يستعد للنوم مغطيا نفسه باللحاف فلا يظهر منه شيء.

نظرت إليه جميلة طويلا وهو ملتحفٌ باللحاف، وحزنت لِما لم تستطِع خلق حياة مع زوجها؟ تمددت على السرير وغطت نفسها باللحاف أيضا ولم يظهر منها شيء، ولم يصدر منها صوتا مع أنها كانت تبكي بصمت.

كان الطلب من العمّة أصعب على جميلة، فلم تعتَد طلب أي شيء منها، وكانت تخشاها أكثر، ولكنها تشجعت وصعدت إلى حجرتها، ودقت الباب وقلبها يدُق مع دقاته، دخلت وبكلمات موجزة وسريعة شرحت طلبها:

- إن زينب تتخطي حدودها، هكذا صرخت العمّة، وأكملت:

- لِما لا تهتم بمصلحتها وشؤونها الخاصة.

رددت جميلة ما كانت قد رتبت له:

- كما تعلمين دخلت ابنتي الروضة، ولم يعد يشغلني شيء في الصباح.

نظرت إليها العمّة نظرات غير المقتنعة، وقالت لها بغضب:

- تعلمي صنعة يا جميلة صنعة تفيدكِ، وتساعدين بها زوجكِ في ظروف الحياة الصعبة.

وعادت لقراءة القرآن أمامها؛ فخرجت جميلة باكية كطفلة لم توافق لها أمّها على طلب. لم تيأس زينب وقد قررت أن تساعد جميلة مهما كان التحدي، فعادت إلى جميلة بفكرة:

- إن رأي العمة جدير بالتفكير يا جميلة.

- كيف؟ جاوبتها جميلة.

فشرحت لها زينب الفكرة وهي مبتهجة. تمحورت الفكرة أن تذهب جميلة لصف محو الأمية لمدة ساعتين؛ وبعدها يمكنها في وقت انتظارها لزينب –لمدة ثلاث ساعات– الالتحاق بإحدى الدورات التي تؤهل النساء في عدة مهارات مثل الخياطة والتطريز وعمل الحلويات والطبخ وغيرها مما يمكن لها اختياره بحسب رغبتها؛ وبذلك تستغل وقتها وتتعلم صنعة مفيدة كما طلبت العمة، ثم تعود مع زينب. ابتهجت جميلة كثيراً؛ وقررت زينب ان تتولي أمر الشرح للعمة، وبالفعل دخلت لحجرتها وتحدثت معها بهدوء وروية ووضحت لها أهمية ان تجد جميلة ما تنشغل فيه في حياتها وسيكون لديها مستقبلا القدرة على ادخال دخل للأسرة

وستتقن القراءة والكتابة وستساعد أولادها دون الحاجة لأحد، تحدثت زينب وهي تضفي على الموضوع سلاسة ويسر في التنفيذ؛ ولم تسأل جميلة زوجها هذه المرة؛ فقد قال لها أن عليها سؤال أمّه وأمّه وافقت.

كانت المعاونة حاضرة هذا اللقاء بين زينب والأم وعندما خرجت زينب تريثت المعاونة دقائق ثم قالت:

- أنها تتحدث بشكل جميل، ليتني حظيت بواحدة مثلها في أول حياتي ربما كنت الان موظفة في مكانا ما.

نظرت إليها العمة بغضب، فأكملت المعاونة متجاهلة العمة وهي تبتسم بهجة بما دار في خيالها:

- ربما معلمة في قريتي وضحكت ساخرة من خيالها فضحكت العمة وردت بصوت خافت:

- صدقتي.

وهكذا تجهزت جميلة لرحلة جديدة في حياتها؛ بعد أن اختارت تعلُّم التطريز. وقبل أن تسجل في الجمعية، اكتشفت أن ليس لديها بطاقة شخصية، ولا شهادة ميلاد.

- باختصار ليس لديكِ هوية، قالت لها زينب متعجبة.

- وماذا يعني ذلك هل سيتعثر موضوع الجمعية؟ سألتها جميلة وهي تنظر إليها برجاء طفلة لا تدري كيف تتصرف.

- لا أعلم يا جميلة، دعيني أفكر.

سألت زينب أخاها، فشرح لها الإجراءات في مثل هذه الحالة، نقلت جميلة لزوجها تلك المعلومات والاجراءات، ولم يوافق وهيب وأخبرها أنها إجراءات طويلة لا وقت لديه لعملها، سكتت جميلة أمام وهيب وبكت بحرقة أمام زينب، اشفقت عليها زينب كثيرا، فتشجعت وطلبت من وهيب إعطاء الموافقة لزيد شقيقها للتكفل بهذه الإجراءات، وافق وهيب دون اهتمام، وبعد أسبوعين صار لجميلة بطاقة شخصية لأول مرة في حياتها.

اعتادت جميلة عند الحاجة على الخروج مع العمّة بسيارتها التي تستخدم لها سائق، أو بصحبة زوجها إذا تطّلب ذهاب أحد أبنائها للتلقيح أو المعاينة، أمّا ذهابها لطبيبة النساء فغالبا ما كانت تذهب معها المعاونة بسيارة العمّة؛ لذا كان ذهابها مع زينب بالمواصلات العامة تجربة ارتجف لها قلبها، شرحت لها زينب أين عليها أن تقف وماذا تخبر سائق الحافلة الصغيرة وكم تدفع، وجميلة تتابعها بخوف وفزع وتمسك يدها تارة وتارة تتركها خجلا. حرصت زينب أن تتعلم جميلة المواصلات تحسُبا لأي طارئ مستقبلا. وهكذا مّرت الأيام، وكان ثمرة اجتهادها مع زينب أن سُجلت بالصف السادس.

*****

ظلت هدى تنتظر أي اشارة من زوجها لدعوتها هي وأبنائها إليه، واصلت مطالعتها بتلفونها على صور عن تركيا، وحلمت كما حلم زوجها بحياة أفضل،

ولكن مرت الأشهر ولا خبر، وتباعدت رسائله على الواتساب؛ اتسمت أخباره بالغموض وشعرت أنها زوجة مع وقف التنفيذ، وما كانت تستطيع أن تقبل الحياة التي عاشتها أمّها، يرعبها الانتظار كثيراً، ويخيفها مرور السنيين التي تترك آثارها على القلوب قبل الوجوه.

أسرّت هدى لزينب ذات يوم وهنّ في صالة التلفاز:

- كنت أعلم أن زوجي طموح؛ وأنه يسعى للحصول على حياة رائعة، فرحت فقد توقعت أن نكون معه في هذه الحياة، وأن طموحه سيصُب لمصلحتنا، شجعته وغذيت أفكاره بالأحلام؛ وضربت له الأمثلة لأناس بسطاء صعدوا للقمة، حفرت قبر زواجي بيدي دون أن أعلم، ولكن للأمانة لم أشجعه على الرحيل، كنت أعتقد أن الأحلام يمكن أن تتحقق هنا في بلدنا.

احتارت زينب بما ترد، ولم تجد غير المواساة قائلة:

- سيرتب الأمور ويستدعيكم يا هدى لا تقلقي، ربما ستكلل جهوده بحياة طيبة لكم جميعا.
- لا يا زينب، قالت هدى وهي تنظر إليها والدموع تنساب دون صوت، وأكملت:
- لقد سمعت مكالمته لأمّه يطلب منها مساعدته بالمال، لم يُحسن التخطيط وانطلق وفقا لوعود أصدقاء وأحلام مراهقين، لم يضعني أنا وأولادي في

الحسبان، لم يبلغني ولم يستشيرني، ستمر السنون هو هائم بحلم؛ ونحن هنا ننتظر زيارة، لا يا زينب، أعتقد أن عليّ طلب الطلاق.

صعقت زينب وسألتها:

- ماذا ستستفيدين من الطلاق، وهل تقولين هذا من قلبكِ؟

أجابتها هدى:

- لا يا زينب ليس من قلبي، ولكنه رد كرامة وهي ما تبقت لي. وفكرت في نفسها "لا أريد أن أكون أمّي".
- أصبري ولا تهدمي حياتك بنفسكِ تمهلي ولا تعيشي حال لا يوجد بالوقع فعليا وربما لن يحدث.
- ربما عماد لا يطيق قيود الزواج، ربما أطلق سراحه، ربما أفضل له.
- تذكري لديكِ أولاد يرغبون بالعيش مع أب وأم.

سكتت هدى وعادت تفكر "ماذا ستأتي به الأيام؟". وهكذا استمر الوضع مع هدى وبدأت تتأقلم مع غياب زوجها وتفكر بحياتها التي تعيشها في هذا البيت، وشعرت وكأنها تعيش حياة مملة محصورة بين العمل وروتين الأعمال المنزلية، لم يكن لها خصوصيتها، لم تتمكن من دعوة صديقاتها، عاشت فقط منتظرة طلبات زوجها ومتابعة أحلامه ونسيت أن بإمكانها أن تبني أحلامها أيضا. سبّب غياب زوجها فراغاً استغربته هدى، لم يكن يتواجد في البيت كثيراً فلِما هذا الفراغ؟ هل لأنها اعتادت قضاء جل وقتها وتفكيرها في متطلباته، الأكل

الذي يحبه، تنظيف ملابسه، تجهيز القات له. حاولت أن تفتش في حياتها عن أحلام ربما صاغتها في الماضي، فلم تجد! تذكرت كيف استطاعت جميلة أن تجد نفسها بعد ركود لسنوات، فعلى الأقل سيكون حظها أفضل إذا فكرت، ماذا تعمل؟ ولكنها تعمل بالفعل وتحب عملها. وظلت هدى تناقش زينب وتتأملا واقعهن وواقع البلد الذي جعل الكثير لا ينظرون إلا ليومهم الروتيني، وأخيرا فطنت هدى أن البهجة تنقصها ولكن كيف تحققها؟ سألت زينب وكأن بيدها عصى سحرية ستحقق البهجة ولو لبضعة ثوان.

*****

قامت زينب بأول خطوة جريئة في البيت، طلبت من العمّة مفتاح المجلس، وافقت العمة وهي تعتقد أنها ستستضيف صديقة أو اثنتين، ولكن ذلك اليوم كان فارقاً في حياة الأسرة، فقد اتفقت زينب وهدى مع جميلة على عمل حفلة كبيرة. فتحت هدى المجلس وقامت بنفضه وتنظيفه مع زينب وجميلة وأشركن إشراق معهن على ألا تخبر والدتها بحجم الحفلة، ومن ثم أقدمنْ على شراء بعض المأكولات الخفيفة والمشروبات وحضّرنْ بعضها في المنزل، وجهزنْ المجلس لجلسة القات بالمشروبات ورُصت الأكواب التي أحضرتها زينب من منزل أهلها، وقامت هدى وزينب وإشراق بدعوة صديقاتهن وشقيقات زينب ودعونْ بالطبع سميرة زوجة عبدالله.

تواردت النساء إلى البيت وارتفعت أصوات الأغاني، تفاجأت العمّة، ونقلت لها المعاونة الحدث، ثمّ نزلت مسرعة للمساعدة مبتهجة بالجو الاحتفالي، ومتجاهلة نداء العمة. جلست المدعوات يتبادلن الأحاديث، ويتعارفن على بعضهن البعض، ظهرت جميلة بحُلة جديدة، بثوب جديد جميل ساعدتها زينب في شرائه، وجلست مع المدعوات، مبتهجة ومتألقة، ومسرورة أيضا بهذا الكم من التنوع بالملبس وتسريحات الشعر. رقصن على إيقاع الأغاني اليمنية؛ فشاركتهن جميلة بالتصفيق، ثم تحمّست وتمايلت مع الأغاني، فكان يوما رائعا، لم يترتب عليه أي ضرر، وقامت إشراق بسرده على أمّها فيما بعد؛ موضحة لها مقدار البهجة التي حصلنْ عليها كلهنْ، فسكتت الأمّ على مضض.

وعند ذهاب المدعوات واحدة إثر الأخرى، بقيت سميرة مع هدى وزينب وجميلة، تحدثنْ طويلا حديثا وديا وهن يرفعن المجلس ويعِدن ترتيبه؛ وعرفت سميرة بما استجد في حياة جميلة، فابتهجت وذُهلت من هذا العمل، ولكنها في هذه اللحظة النادرة بينهن من الحديث الودي قالت لهن معترفة:

- عندما كنت بالسعودية، كانت صديقاتي يمدحنْ عملي للحلويات، فطلبتُ من زوجي أن يسمح لي بعمل حلويات وبيعها، وتوظيف صاحب سيارة أجرة لإيصال الطلبات واستلام النقود؛ ولكنه رفض رفضاً قاطعا ولم يسمح لي حتى بالنقاش، وهذه الأيام قللت جلسات القات وفقا

لنصيحة الطبيب لي والأولاد كبروا ولكن من المستحيل أن يوافق، لقد رفض ونحن في مجتمع لا أحد يعرفنا؛ فكيف هنا في بلدنا، مع الأسف.

ردت زينب:

- من المؤسف ألا يقدر الأزواج رغبة الزوجات بعمل شيء مختلف عن شؤون البيت.

ردت سميرة مستذكرة حياتها:

- عشت قبل الزواج في أسرة محافظة جدا، في صنعاء القديمة في دار كبير، وسط عائلة كبيرة، كنت أصغرهم والبنت الوحيدة، فكنت مدللة من قبل الجميع، مع مرور السنوات كبر إخوتي وتزوج كلٌ منهم خلال سنوات متعاقبة؛ وسكنوا جميعا مع زوجاتهم في هذا الدار الكبير، فضجّ البيت بمشاكل الزوجات وصراعهن الدائم فيما بينهن حينا ومع أزواجهن حيناً آخر، وأكبر المشاكل كانت تلك المتعلقة بالأطفال الذين زادوا الدار حياةً وضجيجاً.

ضحكت سميرة وأكملت فاتحة قلبها، ومسترجعة ذكرياتها لأول مرة مع سليفاتها (زوجات أشقاء الزوج):

- ولكن هذه المشاكل جعلتني فتاة تحلم فقط متى تجد العريس الذي يُسكِنْها في منزل بمفردها، فتعيش الهدوء على الأقل. لم أكن طموحة أعترف بذلك؛ حتى أني عندما أنهيت الثانوية العامة حصلت على معدل

ضعيف، فتحججت به ولم أدخل الجامعة. وعندما رشحتني إحدى صديقات أمّي كعروس لأمّ عبد الله، التي كانت تجوب مجالس النساء بحثا لابنها البكر عن عروس أهم مواصفتها الجمال والطاعة، ومن المفضل أن تكون غير جامعية، وافقت بسعادة كبيرة، واتفقت مع عبد الله أن يستغل فرصة عمل بالسعودية عثر عليها عمي المقيم هناك، فسافرنا وفررت من البقاء ضمن عائلة ممتدة مرة أخرى.

وضحكت وشاركنها الضحك. وهكذا دار الحوار بينهن من هنا ومن هناك وكانت جلسة أخوية ودودة، جمعت بينهن وخاصة أن لا مشاكل جذرية بينهن، فقط بعض من مشاكل الحياة المشتركة.

*****

أبقت جميلة الثوب الجديد عليها ولم تخلعه، وانتظرت زوجها متأملة أن تلفت نظره، جاء وهيب كالمعتاد يطلب العشاء الخفيف كما جرت العادة، صعدت جميلة لإحضاره وقد جهزته من قبل؛ وعادت وهي تفتش في عينيه عن إعجاب أو تساؤل عن الثوب الجديد والتجميل الذي كانت نادرا ما تضعه على وجهها، أخذ وهيب يتناول عشاءه، وجلست جميلة بالكرسي الآخر وقصّت عليه ما كان من أمر الحفلة، وقتها وقع نظره على ثوبها، رفعت أطباق العشاء وعادت مسرعة؛ فوجدته يلاعب ابنته التي استيقظت وقضت على ما كانت تأمله من صُحبة زوجها.

(12)

تقدم رجلٌ تجاوز الخمسين من العمر، متزوج ولديه ثلاثة أولاد لخطبة إشراق كزوجة ثانية، كان يعمل في مكتب طيران اليمنية. جاء عبد الله يخبر إشراق بالخطبة وهو متوقع رفضها، ولكنها أخبرته أن شقيقة الرجل صديقتها وقد سألتها قبل أن يتقدم رسميا إليه، وأنها موافقة. كل شيء كان مرتبا، الزوجة الأولى هنا في اليمن وإشراق الزوجة الجديدة شريكة الرحلة إلى مصر. العريس انتقل عمله حديثا إلى المكتب في القاهرة وهي ترغب بأخذ البورد هناك. كيف تم ترتيب كل هذه الأمور!؟ لا أحد يعلم غير إشراق وصديقتها (أخت العريس) والعريس نفسه. كان واضحا أن الموافقة فقط من أجل السفر ودراسة البورد، جاءت زينة والتي أصبحت صديقة مقربة لإشراق وتحدّثت إليها مطولا للتريث بالموافقة؛ فلم تستمع لها ولم تغيّر رأيها. وكذلك تحدثت إليها زينب بطلب من العمّة التي حزنت لزواج ابنتها من رجل أكبر منها بكثير ومتزوج ولديه أطفال، وهي التي تمنت لابنتها أفضل منه، لكنها أصرّت على موافقتها، وكان الكل يعلم الغرض من هذا الزواج.

جهزت إشراق جواز السفر وأوراق الجامعة، قبل أن تجهز نفسها كعروس، ولم تقبل شراء الذهب أو الفساتين واكتفت بالقليل الذي يناسب الجامعة في القاهرة. رتبت حقيبتها، ولم تقبل عمل حفلات النقش والحنا المعتادة قبل يوم العرس، رفضتها رفضا تاما، وحتى حفل العرس كان حفلاً بسيطاً، وبنفس يوم

العرس سافرت مع زوجها، وودعت أمّها بدموع غزيرة، وودعت إخوتها بنظرات عتاب؛ ورحلت.

*****

رغم أن إشراق كانت أغلب وقتها في حجرتها مشغولة بدراستها، إلا أن البيت بمغادرتها خيّم عليه صمتٌ كبيرٌ، حتى ضجيج الأطفال هدأ، وبدا البيت وكأنه بيت مأتم وليس بيت عرس. حزنت العمّة كثيراً واعتبرت زواج اشراق بهذا الرجل وهذه الطريقة هو نوع من أنواع الانتقام منها ومن إخوتها، وعاد صوت إشراق يرن في مسمعها أثناء نقاشهم بخصوص السفر "إذا كان السفر يلزمه رجل فسأجد لي رجلاً كيفما كان". جاءت شقيقة العمة وسكنت معهم إلى أجل غير مسمى، وكانت العمة محتاجة لهذه الرفقة، فقد جرحها زواج إشراق كثيرا؛ ولم يتقبل قلبها ما حدث، ولم تشعر أنها اطمأنت عليها في كنف رجل، لا! لن تتوقع لهذه الزيجة الاستمرار.

جلست الزوجات الثلاث في الصالة، وانشغلت كلٌ منهن بما في يدها، وكسر الصمت الذي ساد سؤال جميلة:

- كيف هي مصر هذه؟ وهل هي بعيدة؟

نظرت لها هدى مبتسمة، وردت:

- لا، أنها ليست بعيدة، وهي بلد جميل؛ ستكون إشراق سعيدة هناك.

ضحكت زينب ضحكة ساخرة؛ وقالت:

- وهل هذا كافٍ للسعادة؟ لقد رمت إشراق نفسها بزواج لا تريده من أجل تحقيق حلمها بإكمال الدراسة.

استغربت جميلة من كلام زينب؛ وردت:

- ولكن الزواج سنة الحياة للبنات بشكل عام؛ وهو يبدو رجلا جيدا.

قالت هدى:

- لما جيد؟ يكفي أنه متزوج، ولا شك أنه لن يعدل بين إشراق وزوجته؛ خاصة إذا انشغلت عنه إشراق بالدراسة.

قالت جميلة باستغراب:

- ولما تنشغل عنه؟ لا شيء يجب أن يشغل المرأة عن زوجها.

ابتسمت هدى مرة أخرى؛ ونظرت بإشفاق إلى جميلة؛ وقالت:

- ليس كل الرجال يستحقون التفرغ لهم، وستخبرنا الأيام إذا ما ستستطيع إشراق الحفاظ على زواجها ودراستها بنفس الوقت.

رددت زينب بصوت خافت – وهي سارحة:

- إن شاء الله خير، ولكن إشراق تستحق رجلاً أفضل.

مرت الأيام وهدأت النفوس وتغافلت العمّة عن الأحزان، وغادرت شقيقة العمّة عائدة إلى قريتها، وعادت زينب وجميلة لتنفيذ فكرتهن، وبدأت جميلة بتعلُّم الحساب والعلوم، وتبدد ظلام عقلها وعرفت أشياء لم تكن لتخطر على بالها، وتعلّمت أيضاً غزل الصوف إلى جانب التطريز؛ وبدأت تقضي وقتاً طويلا تُحيك

ملابس صوفية للأطفال، كما حاكت شال جميل للعمّة اندهشت به لجماله ولم تصدق أنها هي التي حاكته، كما حاكت شال لزوجها تقبله شاكراً دون أن يبدي إعجابه أو يتحدث عمّا أُستجد في حياتها. شاركت بمعرض الجمعية للأسر المنتجة بما اشتغلته، وابتهجت عندما عرفت أن كل ما صنعته تم بيعه؛ وأنها لأول مرة في حياتها تكسب المال.

بينما واصلت زينب عملها، وكان ضعف الراتب سببا في التقليل من شأنه من قِبل زوجها، الذي لم يترك فرصة إلا وسخر منها كونها تعتقد أنها محاسبة بينما ما تعمله يستطيع عمله طالب إعدادي، أحتج على تركها لابنهما لدى الأمّ، وقال لها "من الأفضل إعطاء وقتكِ لأكرم أفضل من هذا الهراء" لم ترد زينب، تجاهلت واستحملت كلام زوجها الجارح؛ وواصلت عملها دون ملل، أحبّت جو الجمعية والألفة التي تسود الموظفات؛ وحتى سهولة العمل كان مناسبا لها لتفهم أكثر عن المحاسبة وتطور مهاراتها دون وجود ضغوط، وتصادقت مع رئيسة الجمعية وهي امرأة ودودة حلوة الكلام، طموحة دون مبالغة، ترعي الله في كل أعمالها.

تواصلت معها صديقتها منال بعد طول انقطاع وانشغال كلٍ منهما بالحياة، وأخبرتها أنها خُطبت وسوف تتزوج قريبا. صاحت زينب على الهاتف فرحةً بالأخبار الجديدة:

- مبارك منال بالتأكيد قصة حب.

ضحكت منال على الطرف الآخر؛ ثمّ قالت وهي تواصل الضحك:

- أي قصة حب تلك التي تتخيلنها، شقيقته تعرّفت عليّ، رشحتني له، أصررتُ ألّا يتقدم لي إلا عندما أقابله؛ وبالفعل قابلته في إحدى المقاهي مرتين وتحدثنا طويلا ووجدته "لا بأس به"، وعادت للضحك الخفيف.
- جيد؛ ولكن ألم تصادفي في العمل شاباً مناسباً حتى تتعرفي عليه أفضل.
- كيف؟ أغلب الشباب حولي من جنسيات متنوعة وأنا لا أذهب معهم للقائهم في المناسبات والعطل العامة؛ لذا لم أتعرف على أحد بشكل خاص.
- المهم أنك وجدتِ خطيبكِ جيد.
- لا بأس به، لديه عمل جيد، درس البكالوريوس هنا في كندا، ثمّ عمل لمدة سنتين حيث يتم إعطاء الخريجين فرصة للعمل؛ وبعدها يمكن لهم التقديم للإقامة الدائمة أو ما يسمى (بي أر)، ومثل ما فعل أخي فبمجرد أن أخذ الإقامة الدائمة استدعى عائلته في فيزة زيارة وبقوا هنا مثلما بقينا.
- وماذا عن أخيكِ، هل تزوج؟
- لن تصدقي! عندما وجدت أمّي أنه لا ينوي الزواج، ولا يريد أن يتعرف هنا ولم ترُق له أي فتاة، خطبت له ابنة صديقتها باليمن؛ وتم عقد الزواج

بالوكالة؛ والآن يتم عمل إجراءات الانضمام لها، والتي قد تأخذ أكثر من سنة.

ضحكت منال مرة أخرى، وأكملت:

- بمعنى أن زواج شقيقي تم دون أي تعارف؛ فقط معلومات عامة وصور، اعتبر نفسي محظوظة أن التقيت بخطيبي عدة مرات قبل الخطوبة الرسمية.
- كنت أتوقع أن الزواج في هذه البلد سيكون مختلفاً، ويتم عن تعارف وإعجاب على الأقل.
- صدقيني زينب؛ الحب الذي كنّا نشاهده بالأفلام لم يعُد موجوداً؛ الكل صار مشغولاً بالحياة خاصة من هم في أعمارنا، ستكون الخطوبة لمدة سنة؛ وسأحاول أن أتعرف عليه أكثر؛ ولكن– كما قلت لكِ سابقا– لا شيء يمكن أن يُعرّفكِ على الشخص إلا الظروف التي ستمر عليكم معاً بعد الزواج.
- صدقتِ؛ فأنا ما زلت أتعرف على صالح رغم أننا معاً منذ فترة.

*****

(13)

علِمت زهرة شقيقة زينب من صديقة مُقربة لها، أن هناك كثير من الجامعات الخاصة التي تحتاج استاذات من الحاصلات على الماجستير للتدريس بالساعة، أي بدون التزام بدوام كامل والبقاء في الجامعة؛ والحضور فقط في ساعات المحاضرة. أُعجبت زهرة بالفكرة؛ وقررت قرارين حاسمين في حياتها، وكما هو معتاد منها، فقد درست قراراتها جيدا؛ ووضعتها أمام أسرتها لتأخذ رأيها كتحصيل حاصل.

- **حصلت على عمل كأستاذة في إحدى الجامعات الخاصة، وقررتُ دراسة الدكتوراة طالما بدأت طريقي كأستاذة في الجامعة. قالت زهرة للأسرة المجتمعة بأكملها الأب والأمّ والأخوات وزيد وزوجته.**

سعد الأب بقرارها وباركه كثيرا؛ وأبهجه أن تكون له ابنة أستاذة في الجامعة، وبارك لها إخوتها ونهاد. وغمغمت الأمّ متذمرة دون أن تفصح بوضوح عن رأيها، ولكن ملامح وجهها حملت ضيقها لهذا القرار، فهي دائما تعتبر دراسة الجامعة كافية تماما للبنات.

- **سوف أنزع النقاب، قالتها ناظرة إلى أبيها.**

ساد الصمت تماما، وخفّت بهجة القرار الأول، وقطع الصمت سؤال الأمّ:

- **هل سيوافق مازن؟**

ردت زهرة:

- بالتأكيد سيوافق فكل شقيقاته لا يرتدين النقاب والكبرى أكبر مني بسنوات، أنه وضعا مألوفا لديه لا تقلقي.
- هل أخذتِ رأيه؟
- لا عليكِ يا أمّي، يهمني رأيكم ورأي أبي خاصة.

سكت الجميع منتظرا رأي الأب، قال الأب وهو يهم بالمغادرة:

- تعرفين رأيي يا زهرة، وتتذكرين مشادّتنا الكبرى أنا وزينة، لا يعجبني هذا القرار، أن مجتمعنا مجتمعٌ محافظ، وأغلب النساء يرتدين النقاب، لا أجده عائقاً أمام أي عمل.
- انتظر يا أبي، واسمعني، واسمعوني كلكم.

عاد الأب للجلوس على مضض، وأنصت الجميع لها.

- أولا، نعم أصرّت زينة على عدم ارتداء النقاب منذ البداية وكانت حكيمة، فخلعه أصعب من عدم ارتدائه، وماذا حدث؟ ما الفرق بينها وبيننا؟ لا شيء، سوى أنها تسير بشخصية واضحة ومعروفة، هل هي أقل احتراما منّا؟ بالطبع لا، هل تتعرضين يا زينة للتحرشات أكثر منّا؟

نظرت إلى زينة– دون أن تنتظر منها ردا– وأكملت:

- بالطبع لا. نأتي لسبب قراري، سوف أبدأ بعد أسبوع التدريس في الجامعة، عمل جديد ومجتمع جديد، وجدت نفسي فيه، وسعيدة كثيراً أني وجدته؛ فهو بالأغلب ما كنت أبحث عنه دون أن أعي، أريد أن

أقف أمام الطلبة بوجهٍ مكشوف، يعرفوني وأعرفهم، أنا الآن معلمة، مربية في مقام الأمّ، هل تغطي الأم وجهها عن أبنائها، إنك مدرسٌ يا أبي وتعلم طبيعة العلاقة التي تنشأ وتنمو بين الطالب ومعلمه، أريد أن يتعرّف طلابي عليّ ويتذكروني، ثمّ أني امرأة متزوجة؛ وليس لدي غرض إلا أن أعمل بمكان أعرفه ويعرفني.

سكتت زهرة قليلاً تأخذ برهة من الراحة، ثم أكملت:

- كلنا نعرف أن أغلب النساء في المجتمعات الاسلامية الأخرى يكتفِين بالحجاب دون عباية، ومنهن من لا ترتدي حجاب ولا يعيبها هذا نهائيا؛ ويبدو مألوفاً في هذه المجتمعات، نحن أكثر مجتمع يلتزم بهذا الزي، عباية، حجاب ونقاب، حتى دول الخليج صارت تعطي حرية اللبس للأسرة والفتيات لاتخاذ القرار بشأنه، لما نحن مختلفون عن الجميع، ويبدو وكأن القرار صادر من أعلى ويشمل الجميع، لما ليس لدينا حرية الاختيار؟ لما ليس لدينا تنوع في الملبس؟ ومع ذلك مطلبي صغير أن أنزع النقاب فقط.

تبادل أفراد الأسرة النظرات، ولم يجرؤ أحد على التأييد خوفاً من رأي الأب والأمّ؛ ولكن نظراتهم المبتسمة أيّدت زهرة، قام الأب من مجلسه وبارك لزهرة قراراتها؛ وخرج غير راضٍ بشكل تام، وطلب منها أخذ رأي مازن، ودارت الفكرة في عقل زينب ونهاد، "فعلا لما لا نمتلك حرية الاختيار؟".

*****

بدأت زهرة عملها في إحدى الجامعات الخاصة وفتحت صفحة جديدة في حياتها تنصّب على العمل وأمجد، كان لعمل زهرة في الجامعة تأثيرٌ كبيرٌ على حياتها، شغُفت بالعمل ووجدت نفسها حيث تحب أن تكون، أحبّت عملها وأحبّها الطلبة، وسجلت في برنامج الدكتوراة. لم يكن راتبها عالياً، لأنها تعمل فقط بضع ساعات من كل أسبوع، ولكنها اقنعت به لأن راتب زوجها يكفيهم؛ وانتظرت المستقبل بعين متأملة كل الخير برغم ما يسود البلد من اضطرابات، وبرغم ما يقلقها بعلاقتها مع مازن الذي لم يغيّر أسلوب حياته كثيراً بوجود ابن في البيت؛ وإن كان قد بدأ يعطي اهتماماً لهذا المخلوق الصغير؛ ويقضي وقتاً يداعبه ويتأمله ببهجة قائلا لزوجته "هل من الممكن لهذا المخلوق الصغير أن يصبح رجلاً في المستقبل؟"

*****

(14)

انغمست إشراق في دراستها، بينما كان زوجها فرحاً بمنصبه الجديد؛ يجوب القاهرة سائحا ويريدها متفرغةً له، لم تستطع مجاراته في كل تلك المشاوير والبرامج التي يرغب بعملها معها؛ والتفاخر بالزوجة الصغيرة الجميلة، تقبّلت إشراق بعضها على مضض ورفضت بعضها، لم تكن تجد نفسها في المكان الصح؛ ولم تكن تستمتع بتلك البرامج الترفيهية، حاولت بكثيرٍ من الجهد التركيز على دراستها؛ ولكنها كانت تمر في أسوء أحوالها. شعرت أمّها أن الأمور ليست طيبة، وحدست من صوت إشراق أنها غير سعيدة؛ ولم تستطع مع ذلك حملها على البوح بما يزعجها، "دراسة يا أمّي لا شيء يدعو للقلق"، قالت إشراق لأمّها، "لا أستطيع التوفيق بين الدراسة ومتطلبات زوجي الكثيرة" أكملت إشراق شكواها.

*****

قررت العمّة فجأة السفر إلى القاهرة لزيارة إشراق، تعجّب الأبناء فهم يعلمون أنها لا تحب السفر، وتتهيب من ركوب الطائرة كثيراً منذ أن ركبتها في زمناً مضى لأداء الحج مع عبد الله بعد وفاة زوجها بسنوات؛ وكانت أول مرة تركب طائرة، ومن سوء حظها أن الرحلة واجهت صعوبات لم تنسها مطلقاً.

تساءل الجميع عن سر هذه الرحلة؛ وأكدوا لها أنها بضعة أشهر ليس إلا وتعود إشراق في زيارة، ولكنها لم تعط أجوبة ولا أي تعليق على أسئلة أولادها؛ وكان قرارها نافذا، فبدأ عبد الله بإجراءات تجديد جواز سفر أمّه، واستغرق

اصدار الجواز وقتا طويلا، كانت العمّة خلالها تعيش قلق هي نفسها لا تعرف له سبب. وبعد أن اكتملت تجهيزات الجواز؛ طلب وهيب مصاحبة أمّه بدلا من عبد الله؛ وأخبرهم أنه قد جدد جوازه منذ وقت قريب وجاهز تماما، وافق عبد الله بكثيرٍ من الارتياح؛ فمشاغله في الشركة كثيرة؛ ولم تحدد الأمّ فترة لبقائها هناك. تمنت جميلة لو يأخذهم معه، وعندما لمّحت لذلك، ردت عليها العمّة بحِدة "هل تعلمين كم كلفة تذاكر خمسة أشخاص؟". سارع وهيب لتخفيف حدة كلام أمّه وأخبر زوجته أن لا وقت لاستخراج جوازات السفر لها ولأولادها. سكتت جميلة وبلعت مرارة الحزن الذي شعرت فيه، بينما كان وهيب مسرورا دون سبب واضح.

*****

كانت الرحلة فيها مشقة كبيرة، لأن عليهم السفر أولاً إلى عدن براً، ومن ثمّ بالطائرة إلى القاهرة. وسافرت العمّة فخلى البيت منها تماما لأول مرة. بقيت الزوجات والمعاونة وحدهن، وكان صالح الرجل الوحيد في البيت. تغيّر نظام البيت بشكل طفيف، ولكن الراحة سادت البيت، وانقشع الخوف الذي كانت تنشره العمّة بوجود مشاكل أو عدم وجودها. عندما اجتمعت الزوجات ذات يوم مع أولادهن في صالة التلفاز علّقت هدى قائلة:

- لا عجب من هذا الهدوء والسكينة مع أن العمّة تسكن الطابق الأعلى؛ ولكن هذا ما يسمى طاقة سلبية، تبث العمة طاقة سلبية تجعلنا دائما

في حالة من التوجس معها ومع بعضنا، خلقت جو مشاحنات حتى وإن لم يكن بشكل مباشر، هذه قضايا معروفة في علم النفس.

نظرت إليهن وإلى الأطفال الذين يفترشون الأرض ويلعبون أمامهن، وأكملت:

- ألا تلاحظنْ إن هذه أول مرة نجلس مع بعضنا البعض نشرب القهوة ونأكل الكعك، رغم أنها لن تمانع وحتى لن تعرف؛ ولكننا لم نكن نفكر بذلك.

تأملت جميلة كلامها، ولم تفهم المقصود بالطاقة السلبية، ولكنها لاحظت أنها لم تشعر بحزن لسفر وهيب، بل بالعكس شعرت براحة خفية؛ وخاصة أنه منذ فترة ليست بالقصيرة لم يعُد يقربها؛ ولم تعُد بينهم علاقة زوجية، وكان هذا الأمر يقلقها، ولم تعرف لمن تشتكي أو تأخذ النصيحة، فهي تعتبر العلاقة بين الزوجين خاصة جدا؛ لذا وجدت في غيابه راحةً من هذا القلق.

*****

مر أسبوعان على سفر العمّة عندما سمعت الزوجات ولولة المعاونة، فصعدنْ ركضا لتبيُن ما حدث، فقالت لهن: أخبلاني عبد الله انهم نقلوا العمّة إلى المشفى وهو قادم الان! تضاحكت الزوجات وهن يطمئننها بأن هذا وضعٌ معتاد؛ ربما أزعجتها إشراق بشيءٍ ما فاستخدمت حيلتها المعتادة. لم تصغِ لهن؛ واستمرت بالولولة وهي تكرر "يا الله يا الله".

نزلن وهن يتذكرن نوادر العمّة في ادعاء المرض، ولكن فتح الباب بقوة جعلهن يقفزن إلى حجراتهن لجلب الحجابات، وكان الداخل عبدالله، اعتذر بكلمات سريعة؛ وأخبرهن أنه ذاهبٌ في الغد إلى القاهرة، وأسرع لحجرة أمّه لجلب شيء ما. جميلة أول من شغلها الموضوع وتساءلت في نفسها "لماذا يذهب عبد الله. هل حدث شيءٍ ما لوهيب؟ الذي لم يهاتفها منذ أن سافر؛ ولم يسأل عنها أو عن أولادها! ومع ذلك بررت لنفسها أنه مشغول مع أمّه. ولكن ما حدث اليوم جعلها تقلق؛ ولم تتبين لقلقها ملامح، لم تستطع توقُّع ما يمكن أن يكون قد حدث، سارعت بمهاتفة سميرة وسألتها سريعا إذا ما كانت تعلم لما سيسافر عبد الله طالما وهيب هناك؟ فلم ترد سميرة على السؤال إلا بكلمة واحدة "لا أعلم"؛ وأغلقت خط الهاتف. استغربت جميلة من تصرف سميرة التي لا يوجد بينهما أي خلافات سابقة. عادت كل منهن لمشاغلهن مع أولادهن؛ وسكت نواح المعاونة وانتظرن ما سيجلب الغد.

انشغلت الزوجات بأمورهن ومشاغل أولادهن، لاحظت زينب هدوء صالح غير المعتاد وقلقه، ولم تستطع معرفة السبب فقد نهرها قائلا " مشاغل لا تخصكِ"، فسكتت. بعد عدة أيام وصلت العمّة دون إخطار أحد ودخلت بمساعدة ابنها عبد الله وزوجته سميرة، وترقبت جميلة دخول زوجها؛ ولكن الباب أغُلق دون أن يظهر! انقبض قلبها وتأكدت من وقوع حادث له، سألت بخوف:

- أين وهيب؟

فانتحبت العمة، وهلعت جميلة وصرخت بصوت عالٍ! وقبل أن تعيد صرختها التالية؛ سمعت العمّة تقول:

- لا تصرخي لم يمت!! لقد تزوج بنت الفاجرة.

وبالفعل لم تكمل جميلة صرختها التالية، نظرت بدهشة ولم تتبين ما تقوله العمّة، من تزوج؟ ومن بنت الفاجرة؟ انسحب الدم من وجهها، وشحُبت شفتاها وشعرت ببرودة أطرافها وسقطت.

*****

كان وهيب يتابع أخبار ابنة عمه رغم زواجها، وظلت في قلبه وأحلامه، لم يكن يشعر بأي ذنب لعدم اهتمامه بزوجته؛ فهو لم يختارها ولم يستطع حبها ولم يكن في قلبه مساحة لها؛ احتلت ابنة عمّه كل قلبه من زمن ولم تغادره مطلقا، علم وهيب مؤخرا أنها لم تتوفق في الزواج الذي انتهى بالطلاق، وعلم أنها غادرت إلى مصر مع أمّها وسوف تستقر هناك لأجلٍ غير مسمى، فرأى أن الأوان قد حان ليقرر مصيره، وبدأ يتحين عذرا للسفر؛ ولكن الصدفة خدمته وبمجرد معرفته بقرار أمّه للسفر؛ وجدها فرصة مناسبة فتجهز مخفيا غرضه الأصلي، وتقدم عارضا مصاحبة أمّه لزيارة إشراق. قابل ابنة عمّه أمل بسهولة بعد أن تواصلا لأول مرة منذ زواجها برسائل الماسنجر، ووافقت على مقابلته في سرية تامة، وقررا أن يتزوجا سريعا؛ فقد تجاوزت شهور العدة منذ فترة، ساعدتهما أمّها ورتبت

لهما الأمور. تم الزواج بالسفارة، وذهبا يدا بيد لمقابلة الأمّ التي سقطت لأول مرة صادقة؛ وشُخصت الحالة جلطة قلبية.

*****

لازمت جميلة حجرتها وبالتحديد سريرها، تقوم المعاونة بأمور أطفالها وهي غافلة عن كل شيء، لا تبكي ولا تتكلم، وتظل ناظرة لسقف الغرفة وكأن عرضا يجرى هناك عليها متابعته. حاولت زينب كسر ذهولها، وحاولت هدى محادثتها بخبرتها في علم النفس وإخراجها من قوقعتها، ولم تستجِب. مرت أيام على هذا الوضع، قلقت العمّة ولم تدرِ ما تعمل مع فتاة لا أمّ لها ولا أب، جلبت امرأة تقرأ القرآن في الحجرة، ولم تستجب ولم تغيّر طباعها؛ فكانت لا تتحرك إلا لصلاتها ولا تأكل إلا بضع لقيمات ناشفة؛ وكأنها تعاقب نفسها. وأخيراً –بعد الحادث بخمسة أيام– سمعتها زينب تخاطب ابنها ياسر "أكبر يا بني، ليس لدي أحد في هذه الدنيا إلا أنت، هل تعلم لو كنتَ في القرية لاعتُبرت رجلاً ويمكن أن أبحث لك عن عروس؛ ولكن هنا! يعتبرونك طفلا، أكبر يا بني، ما أكثر البشر في العالم وليس لدي إلا أنت". فذهبت زينب تبشر الأسرة أن جميلة عادت.

*****

- هل تعلمين يا زينب؟! لو لم تُفسد زوجة أبي الأمر لكنت تزوجت سالم، كنت سأكون سعيدة، صحيح ما كنت سأتعلم القراءة والكتابة؛ ولكني

كنت سأكون سعيدة، وما كنت سأتعلم التطريز وحياكة الصوف؛ وما كان سيعيش أولادي حياة المدينة؛ ولكني كنت سأكون سعيدة.

سألتها زينب:

- من سالم؟

ردت وهي تنظر للماضي بابتسامة باهتة:

- سالم أخو صديقتي، كان يأتي جريا لمحادثة أخته عندما يجدني أقف إلى جانبها، لم أبعد وجهي عنه رغم أني خجولة لا أدري لِما! هل تعلمين يا زينب بأننا لم نكن نغطي وجوهنا في القرية؟ تقدم لي طالباً الزواج بي، فرحت، رقصت لوحدي من الفرحة، حلمت فيه في منامي وحلمت بأطفالي منه، ولكن لم تكتفِ زوجة أبي بإفساد الخطبة كما هو معتاد منها، ولكنها اشاعت أني قلت بأني أستحق أفضل منه، صمتت جميلة وهي تعيش مرارة الذكرى التي تمر أمام عينيها.

سألتها زينب تشجعها على التنفيس عن نفسها:

- ماذا حدث بعدها؟

- غضبت أمّه وخطبت له فتاة أخرى مباشرة، أخبرته أخته بكذبة زوجة أبي؛ ولكنه تزوج بعدها بشهر؛ لم يراجع قرار أمّه خلال هذا الشهر، ولم يتمسك بي رغم أن أخته قالت لي أنه يحبني.. رضخ لأمّه مثلما رضخ وهيب لأمّه وتزوج مني لا فرق.

مسحت دموعها وسألت زينب بجدية:

- هل سيطلقني؟ لما سيبقي عليّ؟ أنه لم يحبني منذ البداية فكيف اليوم وله زوجة جديدة.

ردت زينب مواسية لها:

- لا أعتقد لما قد يفعل هكذا، أنتِ زوجته وأمّ أولاده.

جاوبت جميلة بصوت واهن:

- إذن أنا أطلب الطلاق؟

سألتها زينب بدهشة:

- وماذا ستستفيدين يا جميلة، لما ستعطين له الفرصة لينسلخ عن الأسرة؟ حاولي أن لا تساهمي في تشتيت شمل أسرتكِ.

بكت بحرقة وتمتمت:

- إذن كيف أعبر عن حزني؟ لما لم يحبني وهيب؟

وعادت لتكمل حديثها دون أن تنتظر ردا، ولم تكن بالأساس تنتظر لأي رد، خاطبت نفسها بصوت مسموع:

- لقد أحببته كثيراً، لم أحب في حياتي أحدا مثلما أحببته، رغم شحة عاطفته اتجاهي، كانت أقصى فرحة أشعر بها عندما يبتسم لي، يشكرني على عمل قمت به له، فأكتفي بهذا وأفرح.

- شردت بذكرى؛ وظهرت ملامح الحزن أكثر على وجهها؛ وأكملت:

- هل تعلمين يا زينب، لم يكن معي حتى على الفراش، الآن استوعبت، يغمض عينيه ويهمس دون أن أميّز كلماته، ربما كان يهمس باسمها! كنت أشعر به معي بجسده وليس بقلبه وروحه، لم أستطع سؤال أحد، ماذا سأقول؟ كيف سأشرح ما أشعر به؟ وأنا ما كنت أعرف له تفسير، الآن عرفت السبب، لم يضمني بقلبه، لم أكن بقلبه، كانت هي بيني وبينه دون أن أعرف.

دخلت هدى الحجرة لتطمئن على جميلة عندما سمعت حديثها مع زينب، فواصلت جميلة حديثها تسألهما معا:

- هل هو معها الآن؟ يتشاركان كل شيء ويخلُدان لفراش واحد؟ يضمّها بحب حقيقي وليس كما كان يضمّني، لقد أحببته من كل قلبي، سكن واحتل كل وجداني، لا أستطع تخيّله يشارك امرأة أخرى حياته، أنه زوجي أنا، ولكن ما مصيري الآن؟ إني أعيش معلقة، لا شيء يسندني، على رقبتي يتعلق أربعة أطفال تخلى عنهم، هم أطفاله، ماذا أعمل يا زينب؟ ماذا أعمل يا هدى؟ دلوني لقد سحب بساط الأمان من تحت قدمي، وكنت أرضى بالقليل، ومع ذلك خسرت هذا القليل، ماذا أعمل؟

حارت زينب بما ترد، حضنت جميلة وجاوبتها هدى:

- الله لا ينسي عباده، ستتجاوزين هذا كله؛ ويصبح من الماضي.

- أتجاوز!!، كيف؟ أنتِ موظفة مثلكِ مثل أي رجل يا هدى، لا تخافين أن تجدي نفسكِ دون زوجكِ، تستطيعين الإنفاق على أولادكِ على الأقل، أعلم بالطبع ستحزنين، وتتألمين ولكنك لن تقلقي.
- مع الأسف يا جميلة الإنفاق ليس كل ما تحتاجه العائلة، أني أخاف جدا ألّا يعود عماد، ويفتقد أولادي أبا بجانبهم، لقد عانيت من غياب الأب رغم أنه كان ينفق علينا، لا أتمنى أن يعش أولادي نفس الفراغ والفقد لأب موجود وغائب. جميلة اسمعي نصيحتي يجب عليكِ أن تنتظري حتى تهدأ الأمور؛ وتعيدي وهيب إلى حياتكِ أو على الأقل لحياة أولادكِ.
- كيف؟ أتمنى أن يعود، سأظل أنتظر عودته دائما، لن أساله إذا عاد لِما رحل هكذا؟ سأكتفي بعودته، ولكن هكذا صعب أن يرحل دون عودة، وعادت تبكي.

تذكرت هدى كلام أمّها "خيرا لي أن انتظر قدومه من ألّا أنتظر شيئا"، وفكرتْ "بالتأكيد جميلة تفضل حياة من دون روح؛ أفضل من روح من دون حياة؛ فوهيب كان حياتها".

بعد أيام قليلة من تلك الحادثة المشؤومة في حياة جميلة وبعد أن تعافت قليلا، صعدت إلى حجرة عمّتها ربما محاولةً أن تبين لها أنها لم تقصر في حق وهيب، أو ربما شوق جارف لحضن أمّ. ودون أن تتوقع العمّة وحتى جميلة، رمت نفسها في حضنها؛ وبكت بحرقة وهي تتساءل:

- لم أقصر بشأنه في أي شيء يا عمّة، لم أتأخر عنه في أي طلب، ولكن قلبه كان مشغولاً عني، لم أجد لي طريقاً إليه، ليتكِ أخبرتِني، ليتكِ حذرتِني. وعادت تكمل والبكاء يقطّع كلماتها:
- هل تخلى وهيب عنّي؟ هل تخلى عن أولاده؟

جاوبت العمّة وهي تربت على رأسها؛ وقد شجنّها تصرُف جميلة:

- لقد سحرته ابنة إقبال، لا عليكِ، سأهتم بكِ وبأولادكِ، وسيعود صدقيني سيعود.

وأكملت العمّة:

- سوف يندم يا جميلة؛ صدقيني سوف يندم.

ووجدت جميلة نفسها تقول للعمّة:

- أريد أن أذهب لزيارة قبر أبي، سأذهب وأعود بنفس اليوم.

لم تستوعب العمّة الطلب، تأملتها فوجدت على ملامحها جدّية، ولأول مرة لم تستطع العمة قول لا؛ ووافقت.

لم تأخذ جميلة هذه المرة أحداً من أولادها إلا ياسر، أخذته فقط من أجل ألّا تسافر بمفردها مع السائق الذي وفرّته لها العمّة، وعندما وصلت إلى القرية وإلى المقبرة بالتحديد، أبقت الابن بالسيارة؛ ونزلت ملتحفة بسوادها، سارت بخطوات ضعيفة ودموعها تنهمر حزنا وقهرا، جلست على التراب أمام القبر، قرأت الفاتحة، خاطبت أباها بكلمات ظلت داخلها منذ زمن، "أبي لم أجد نفسي

بينكم ولم أجد نفسي بين أهل زوجي، ولا أدري هل كان الأمر سيختلف لو كنتَ لا تزال عائش بيننا؟ هل كنتُ سأجد المواساة حتى لو بكلمات قليلة؟ وظلت جميلة تبكي بصمت، وتناجي أباها حينا ووهيب حينا آخر، لم تلفت لأي من البشر الذين كانوا يعبرون المقبرة في طريق عودتهم من مزارعهم وحقولهم، بقيت ساعة كاملة ثمّ غادرت، وجدت ابنها نائم والسائق منتظر يتناول القات ويسمع أغاني من مذياع السيارة، عادت جميلة دون أن تعرف لماذا ذهبت؟

تناقل أهل القرية الخبر بكثير من الغموض، قال البعض إن امرأة زارت قبر " الحاج محمد "؛ وكانت ترتدي لباس أبيض من رأسها حتى أخمص قدميها، وقال البعض أنها كانت تلبس الأسود، وأنكر البعض أن تكون جميلة ولا تمر لرؤية أشقائها، وافترض البعض أن جميلة ربما ماتت وهذه روحها جاءت تزور الأب، ولم يعرف أهل القرية من كانت زائرة القبر؛ ولكن الكثير من الحكايات كانت تتوالد كل يوم إلى أن عاد أهل القرية للانشغال بحياتهم؛ ونسوا زائرة القبر المجهولة.

*****

بكل الحزن الذي عاشته جميلة وبكل القهر الذي شعرت به؛ كان وهيب يعيش أجمل أيام عمره، يعيش حلمه الأزلي، عاد إلى صنعاء مع زوجته الجديدة التي تعمل كطبيبة؛ وفور وصولها مباشرة فتحت بمساعدة أبيها مستوصف مع

زميلتين لها؛ ترك وهيب عمله مع عبد الله من دون إخطار وعمل في المستوصف مديرا. واستأجر شقة في عمارة حديثة في مدينة حدة (من أجمل الأحياء في صنعاء)، ثلاث حجرات، صالة، مجلس، حمامان. مساحة استطاع أن يفرد فيها جناحه؛ فلا يصطدم بجدران حجرته البائسة التي عاش بها منذ أن وعى على الدنيا دون أن يستطيع أن يُحلّق. عانق أمل حياته وعانق معها السعادة والبهجة، عاد كصبي صغير مثلما كان يوم أن التقى بها لأول مرة، نسى وتناسى كل شيء مرّ به دون أمل، عاش وهيب عالما ورديا، عادت الابتسامة لوجهه، وأشرقت شمس حياته بعد طول غروب، سرى الدم دافئا في عروقه، وعاد له شغف الحياة. وكذلك عاشت أمل أخيراً حياة تاقت لها منذ الصبا، لها هي وهو منذ أن وعيا بالحب الطفولي الذي لامس قلوبهم الفتية؛ لم تشعر أنها اختطفت رجلاً متزوجاً؛ ولكنها اعتبرت جميلة هي من اختطفت رجلا عاشقا، شعرت أمل أنها استردت قلبا هو لها منذ الطفولة. عاشا اثنينهما دون أن يتطرقا للزواج السابق لكل منهما، كأنما لم يكن، وخاصةً أنها لم تنجب أولاد من زواجها السابق، ولم يزُر وهيب أمّه أو أسرته بالرغم من تشديد أهمية ذلك من قبل أخيه عبد الله، ولم يمُد أسرته بأي مال رغم توفره لديه، عاقبهم كلهم بعقابه لأمّه؛ وليس لهم ذنب.

*****

(15)

تمكنت زينب من شراء سيارة بسعر مناسب، وأعطى زيد من وقته لشقيقته فقام بتدريبها على قيادتها، فحصلت على الرخصة خلال فترة وجيزة، كان لوجود السيارة فرجٌ كبيرٌ لها ولجميلة التي تخرج وتعود معها، ولهدى التي أصرّت زينب على تجنيبها زحمة المواصلات صباحا بالخصوص؛ بينما تُعتبر العودة أسهل؛ ولا يتفق وقتها مع وقت عودة زينب من عملها.

بالوقت الذي أشرقت حياة زينب بحصول الجمعية على مشروع كبير لمدة سنة، انتهى مشروع زوجها في الشركة، ووجدت زينب نفسها تعمل عمل محاسب في مشروع مُمول من جهة خارجية، وتضاعف راتبها رغم أنه لم يكن مشروعاً ضخماً، بينما وجد صالح نفسه أمام خيارين إمّا البقاء بالشركة والانتقال إلى عمل محاسب الشركة (وليس محاسب مشروع كما كان) براتب أقل من السابق، أو ترك العمل. وحمدت زينب الله؛ فصالح لن يستطيع هذه المرة سلبها عملها حتى وإن رغب بذلك.

بدأ صالح يتأفف من تأخر زينب بالعمل إلى الثالثة عصراً، بينما تعلمت جميلة العودة بالمواصلات خاصة أن الجمعية قريبة من مسكنها؛ وأحياناً يمكنها العودة مشيا، وبدأ صالح بتناول طعام الغداء مع أمّه أغلب الأيام، بينما تعود زينب إلى المنزل بعد أخذ أكرم من منزل أهلها؛ فتأكل ممّا طبخته أمس الليل؛ وتذهب لمتابعة احتياجات ابنها وزوجها. تمادى صالح في إظهار غضبه من عمل

زينب، فبدأ في بعض الأيام يعود من جلسات القات وينام في طابق أمّه في حجرة إشراق، محاولا أن يشعِرها أنها غير مهمة؛ ويمكن له الاستغناء عنها ببساطة، وباركت له أمّه هذا التصرف، وحذرت المعاونة زينب بأنها سمعت العمّة توعد صالح بزوجة أفضل إذا استمر انشغالها وقت أطول، فعاشت زينب قلق وحزن، لا تدري ما الحل؟

*****

- كيف لا يقدرون عملي، ببساطة يقولون لي يمكن لك العودة إلى عمل المحاسب المعتاد أو ترك الشركة؟

هكذا تذمر صالح أمام زينب لأول مرة منذ أن انتهي المشروع الذي كان يعمل به، حاولت زينب تخفيف حدة الألم عليه؛ وأخبرته أن راتبها الحالي جيد جدا، ولكنه لم ينظر للجانب الإيجابي لكلامها؛ بل قال:

- سوف أبدأ من الغد بالبحث عن عمل، وكما تعلمين مؤهلاتي عالية، وسوف أجد عملا جيدا خلال فترة بسيطة، لا أحتاج لراتبك يمكنكِ أن تصرفيه في إصلاح السيارة المتهالكة التي قمتِ بشرائها.

صمتت زينب كما تعوّدت دائما على تجاهل تهكمات صالح وتنقيصه لقدرها وجهودها، صمتت ولكن في أعماقها تساءلت "لما يتصرف هكذا؟ لما يعاملها كأنها عدوة سوف تفرح لتعثره؟!".

توالت الأيام... ورغم حرص زينب على موازنة مسؤولياتها المتعددة، وضغط نظام البيت الذي استمر على حاله، وكآبة غياب عماد ووهيب الذي ترك ظلالا من الحزن حتى على وجوه الأطفال؛ وعلى أركان البيت، وحفر مزيداً من التجاعيد على وجه العمّة، إلا أن كل جهودها كانت تذهب أدراج الرياح عندما يغضب صالح لأي شأن كان خاصة بعد أن ترك الشركة، فيصُبُّ غضبه عليها وعلى عملها وعلى إهمالها لأكرم. تحمّلت وتفهمت خسارته لعمله، أعطت من راتبها للعمّة بدلاً مما كان صالح يعطيه، وافق صالح على تصرفها على مضض ولكن زاد قلقه الذي ما كان يجد إلا زينب لصبّ غضبه عليها لسبب أو دون سبب.

أخيرا وجد صالح عملا في نفس الشركة التي كان يعمل فيها سابقا "تواصلوا معي وترجوّني أن أعود، وأعلموني أنهم حريصون على عدم خسارة شخص مؤهل مثلي". هكذا برر صالح عودته لشركة الاتصالات التي كان يعمل بها سابقا، عاد يُسلّم نص راتبه لأمّه على اعتبار استمرار زينب بتسليم جزء من راتبها، واستقرت بينهم الأمور نسبيا.

جاء رمضان في ذلك العام مختلفاً، جهزت الزوجات المجلس للفطور الجماعي، ولكن غياب عماد ووهيب جعل من ذلك الفطور مجرد عادة وأداء واجب ليس إلا، كانت العمّة تتناول الإفطار أحيانا في حجرتها؛ فيصعد صالح للفطور معها متجنباً أن يفطر مع النساء والأطفال فقط، وعندما علم عبدالله بالوضع؛ قرر مشاركتهم الفطور فيما تبقى من أيام رمضان؛ فحضر مع أسرته

وعادت العمّة وصالح إلى الإفطار الجماعي؛ وعادت الحركة والضجيج المعتاد إلى ذلك التجمّع. وذات يوم؛ وبينما هم ينتظرون الآذان؛ قالت العمّة فجأة:

- حرصت طوال عمري على أن نكون في بيت واحد، حرصت أن يظل الإخوة مع بعض، يساندون بعضهم، وحرصت على أن يكبر الأحفاد وهم بمثابة الأشقاء وليس أولاد عم، هل كان هذا خطأ مني؟

نظرت لهم كلهم وقد ساد الصمت؛ حتى الأطفال سكتوا ونظروا لها؛ فعادت تكمل حديثها وقد امتلأت عيناها بالدموع وتهدرج صوتها:

- نويت توسيع البيت ليكفي الجميع وحالت الحرب دون ذلك، خرج عبد الله من البيت وكسر حلمي من زمن؛ فقلت لا مشكلة، الخير بالباقي، ولكن أين وهيب اليوم؟ أين عماد وبأي أرض يعيش؟ أين إشراقة قلبي؟ وحتى صالح كانت خطته من أول يوم للزواج هو الاستقلال، لِما؟ هل وجود العائلة مع بعضها البعض خطأ؟ هل كان حلمي أناني وقديم لا ينفع لهذا العصر؟!

سكتت العمّة وسكت الجميع؛ وكأن على رؤوسهم الطير! وكانت المعاونة تبكي بصمت حُزناً على العمّة وارتفع الأذان فتسابق الأطفال ومدّوا أيديهم للأكل؛ ومدّت العمّة يدها؛ فتشجع الجميع وبدأوا بالأكل، واختلف الكلام بينهم وحاول الكل تناسي الشكوى المُرّة التي بثتها العمّة؛ وكأنها تريد توضيح المسار التي كانت تأمل أن تسير عليه أسرتها.

(16)

ضاقت البلد بأحلام شبابها، وخذلت أمنيات كبارها بحياة آمنة، وصارت إلى مشهد غير مألوف! خوف، قلق، تشتت...، لم تساعد الأحداث التي تعيشها البلد، والانفجارات التي ترجُّ أركانها من حينٍ إلى آخر في منح الأمان، ومع ذلك يظل على الشباب أن يواصلوا الأحلام ويسيروا في خطى أهدافهم. بدأت زينة بتحقيق حلمها مع صديقة لها، وبدأتا بعمل حساب لهن على الإنستجرام، عرضا به صور كثيرة لأفكار الديكورات المنزلية، وانتظرتا وصول الطلبات. خلقت الحرب حماساً أكثر للعمل الحر، خاصة بعد انقطاع الرواتب عن الوظائف الحكومية، وتقلُّص فرص العمل بالقطاع الخاص؛ فاتجه أغلب الخريجين إلى المشاريع الخاصة، والاستفادة من منصات التواصل الاجتماعي. لم يقتنع الأب بما قامت به ابنته، وشجعها على البحث عن عمل براتب شهري تستطيع أن تعتمد عليه، ولكن كان لزينة رأيٌ آخرٌ وحلمٌ مختلف تخنقه ظروف البلد ويجمّله الأمل، وشغف الشباب بتحقيق الأحلام.

*****

عندما بدأ أكرم يخطو خطواته الأولى، شعرت زينب بالقلق وهي تقيّد خطواته بالمساحة الضيقة المتبقية في حجرتها، وإن أخذته للصالة تعثرت خطواته؛ وهو يجد الأطفال يحاوطونه وكلٌ منهم يحاول أخذه أو مسك يده؛ وهي تتجنب نهيهم خوفاً من تحسس الأمهات. كانت تراعي الكل من حولها؛ وتحاول ألّا تكون

طرف بأي شجار بين هدى وجميلة؛ والذي غالبا ما يكون سببه الأطفال واستخدام الحمام، وأحياناً تنظيف الطابق الخاص بهن الذي كان مسؤوليتهن.

في إحدى الأيام عانى أكرم الصغير من ألم في بطنه؛ فواصل البكاء وقتاً طويل، وبدلا من أن يتحمل الأب هذا العارض صرخ على زينب، وطلب منها إيجاد حل لتهدئته؛ فهو يريد أن ينام، ولديّه عملٌ في الصباح الباكر، وعندما واصل أكرم البكاء طلب منها أن تخرج للصالة؛ ولكنها رفضت فمعنى كلامه أن تخرج لإزعاج البقية وهم لا ذنب لهم؛ وقالت له بحدة:

- أنت أبوه! عليك احتمال بكائه ولكن الآخرين لا ذنب لهم.

- إذن؛ أنا من سيخرج.

أخذ صالح فراشه وخرج للنوم على الأريكة، لم تهتم زينب وواصلت محاولتها في تهدئة أكرم حتى نام؛ ونامت هي من التعب بجانبه على سريرها، وقُرب الفجر عاد صالح لحجرته؛ وهو يتمتم غاضبا:

- لما لم تخبريني عندما سكت أكرم حتى أعود لسريري، إن ظهري يؤلمني وكله بسببكِ.

نهضت زينب حتى تصلي الفجر غير عابئة بكلامه؛ وهي تتمتم:

- لا أذكر متى سكت.

كانت هذه المشاكل تتكرر كل حينٍ وآخر، أحيانا بسبب توعك الصغير أكرم، وأحيانا بسبب توعكها هي، والذي لم يكن صالح يتعاون معها أثناءها،

وبالعكس يتذمر وكأنها تقصد إزعاجه، وكانت تتمنى لو أن هناك حجرة أخرى حتى تذهب إليها وتتركه لنومه الهنيء.

حملت زينب للمرة الثانية، وقد صار ابنها أكرم بعمر العامين، تعبت في أول الحمل كما حدّث في الحمل الأول، ذهبت إلى منزل أسرتها لفترة قصيرة، واضطرت جميلة استخدام المواصلات بالذهاب والإياب، وأخيرا أكملت شهادتها الاعدادية، ففرحت ولم يشاركها أحد الفرحة، استلمت شهادة تقدير على منتجاتها من الجمعية، ولم يبارك لها أحد من أسرتها؛ فهي لم تبلّغ أحد ولا حتى زينب. أتقنت التطريز وحياكة الصوف وبدأت تكسب القليل من المال، تميّزت بالتطريز وأشادت زبوناتها بذوقها وجودة عملها، فبدأت تطرز أقمشة عرائس لأسر مقتدرة، وحصلت على دخل أفضل، كان عليها استقطاع جزء منه للجمعية– كما هو متفق عليه من كل مبيعات النساء في الجمعية – ولكن رئيسة الجمعية استثنت جميلة من هذه القطعيات عندما علمت من زينب ظروفها.

*****

بينما زينب وجميلة في المطبخ، سمعتا العمة تخبر المعاونة وهن في مجلس الأمّ الصغير في حجرتها:

- تشكو إشراق أن زوجها يريدها بجانبه دائما، وهو وضع طبيعي، لكنها لا تريد إلا دراستها، ردت المعاونة:
- لأنها لم تتزوجه إلا من أجل دراستها.

ضحكت جميلة بأسى؛ وقالت بصوت خافت:

- تشكو إشراق من كثرة الاهتمام، وكنت أشكو من كثرة الإهمال.

نظرت إليها زينب بأسى، وردت بنفس الصوت الخافت:

- أنكِ أحببتِ وهيب، ولم تحب إشراق زوجها.
- لم أعد أحبه، لقد كسر قلبي، لا، لم أعد أحبه.
- ولو عاد ألن تسامحيه؟ ...ردت جميلة وهي تأخذ ما أعدته وتخرج:
- لن أقول له أرحل فهذا بيته، ولكن لن يجد جميلة التي يعرفها، لقد عشعش الحزن بقلبي وأخذ مكان وهيب ولن أعد أراه كما كنت أراه، لم يعد وهيب الذي أحب.

واصلت زينب ما كانت تعُدّه في المطبخ وهي تسمع عبارات الأسى والغضب من الأمّ تجاه إشراق، فكرت بحزن "لم تجد إشراق من يفهمها، حتى زوجها الذي هو على علم بالغرض من هذا الزواج، عليه إعطاؤها مساحة لتحقق ما تريد وبعدها لديهم العمر كله، فمن التي تكره أن يهتم بها زوجها وتجوب معه الأماكن وتشاهد برفقته معالم البلد". أخذت زينب ما أعدّته ونزلت وهي تفكر " الزواج رابط مقدس، فإذا دُنس صعُبت الحياة ولن تعود كما كانت، الخيانة، الهجران، التخلي، الإهمال من أي طرفٍ كان الزوج أو الزوجة لا شك أنه يدنس قداسة الرابطة بين الزوجين".

*****

جلست زينب تهدهد سرير أكرم، بينما صالح جالساً على الأريكة الصغيرة وأمامه جهازه وبعض الأوراق وبدا مشغولا جدا، استغرقت زينب في تفكير عميق بالابن القادم، هل سترسل أكرم إلى الحجرة العلوية؟ –حجرة الأطفال كما هو معتاد تسميتها–، لقد سحبت هدى ابنها بمجرد سفر عماد، وأبقت جميلة أبناءها كما كانوا في حجرة الأطفال حتى بعد رحيل وهيب؛ فبقيت معها ابنتها كما كانت من قبل، تساءلت زينب "أين وعد صالح بالانتقال لسكن خاص؟! لقد مرت قرابة الثلاث سنوات منذ زواجهما؟ كيف سيمرّ العمر بهذا الضيق؟" قطع عليها حبل الأفكار تذمر صالح من عدم قدرته على إيجاد الخطأ في الأرقام على ملفات يطالعها أمامه على جهاز الحاسوب، فعرضت عليه المساعدة، ضحك وأخبرها أن هذا عمل كبير، وليس بمستوى مشروع جمعية صغيرة، سكتت وكأنها موافقة وهي فقط متوقعة الإجابة، وعادت إلى تفكيرها وتذكرت أحلامها قبل الزواج والأطفال يلعبون أمامها هي وصالح بينما هم يتبادلان أحاديث متنوعة ويخططون لحل ما يصادفهم من مشاكل، صرخ صالح مبتهجا "وجدته، ليس إلا مسألة وقت لا شيء يقف أمام عقل وفطنة صالح". وقضى وقتاً لتصحيح ما يود تصحيحه، وأقفل الجهاز وحمل القات استعدادا للخروج، فبادرته زينب بالسؤال:

- صالح، هل يمكن لي سؤالك سؤالاً سريعاً قبل أن تغادر؟

رد عليها مستعجلا:

- ماذا؟ بسرعة فقد تأخرت عن المقيل.

سألت زينب:

- ماذا كنت تأمل من زواجك؟

نظر إليها مستغربا السؤال، وقال:

- ما هذا السؤال؟ هل شاهدتِ مشهدا كهذا في فيلم أو مسلسل وتريدين تطبيقه عليّ.

نظرت إليه تنتظر الإجابة قائلة:

- لا، أرجوك أعطني بعضاً من وقتك، وجاوبني.

جلس صالح مرة أخرى؛ وكأن السؤال أغراه بالتفكير، وقال:

- أطفال، اثنان يكفي والحمد لله.

- وماذا؟

- لا أدري يا زينب أشعر أنك تريدين توقيعي في فخ. فطمأنته:

- لا تخف، وماذا أيضا بكل صدق، فرد:

- بالطبع زوجة أنام معها.

ونظر إليها محاولا أن يستكشف سر هذه الأسئلة، وقد دب قلقٌ في نفسه:

- ما المشكلة زينب! هل تنوين طلب الطلاق؟

ضحكت بصوت هادئ:

- لا، لِما اطلب الطلاق؟

تنهد بارتياح:

- الحمد لله– إذن وأنتِ ماذا كنتِ تحلمين من زواجك. ردت:
- أيضا أطفال، وأب موجود بجانبنا، بيت صغير ومجلس يضمّنا، مشاوير مشتركة، أحاديث وضحكات من مواقف حدثت لنا خلال يومنا، أو من لقطات مسرحيات نشاهدها معا، كنت أحلم بحياة عادية ربما مثل حياة أمّي.

سألها بقلق:

- هل وجدتِها؟

نظرت إليه مستغربة:

- ألا تعيش معنا؟!! هل وجدتُها برأيك؟ هيا قبل أن يفتقدك رفاقك، ويذبل القات، يكفي أنك وجدت ما كنت تتمناه.

وعادت تهدهد أكرم، وقد بدأت الدموع تملأُ عينيها، وخرج صالح وهو يتمتم:

- المهم لن تطلبي الطلاق..
- لا لن أطلبه وفكرت بنفسها "ليس الآن على الأقل".

خرج صالح وبقيت زينب بالحجرة تفكر، لم يكن القرار الذي يدور في عقلها سهلاً، تعلم جيدا ماذا يعني وجود طفلين، وتعي أكثر أن عليها توفير حياة أفضل، ولن يتم هذا إلا بتحركٍ جاد.

*****

(17)

لا تدري كم مرت من أيام وشهور ربما قاربت السنة منذ سفر عماد، تركت هدى احتساب الوقت منذ أن فقدت الأمل بأنه سيعمل على جلبهم إليه، لم ترُد على مكالماته التي وصلتها في الفترة الأولى من سفره، ثم قطعها وارتاحت هي "إذا لم تشتَق لي، ألم تشتَق لأولادك؟" كانت هدى تفكر في ليلها الطويل وهي ساهرة تنظر لأبنائها النائمين، "أي مستقبل لكم دون أب من هذا العمر المبكر؟" ويمر ببالها قصص المهاجرين الذين ينسون العودة، وتبتلعهم هاوية الغربة، تطحنهم الحياة هناك، لا سُعدوا ولا عادوا. تفتح هاتفها وتمرر الصور، صور الخطوبة، الزواج، رحلاتهم أول العمر، ولادة الأبناء، "هل هذا هو عمر زواجي؟ هل ما زلتُ متزوجة؟ هل عليّ العودة لمنزل أهلي، وحفظ ما تبقى لي من كرامة" صارعتها هذه الأفكار كما هو الحال كل يوم دوم ملل ولا كلل، كانت تفتقده بشدة، تحن له كل ليلة، تعيد كلماته وهو يحدثها عن أحلامه في خيالها مرات ومرات، يمضي الليل موحشاً، تبكي بصمت، وأخيرا أغمضت عينيها تحاول النوم، لاح الفجر، قامت للصلاة، عادت لمحاولة النوم، حصلت على قليل منه قبل أن تنهض ليوم جديد.

*****

صعدت هدى إلى المطبخ؛ وقبل أن تصل وصلها صوت العمّة تتحدث بصوت عالٍ، فهمت من الحديث أنها تحدث عماد، وأنه عائدٌ بعد أسبوع،

تفاجأت، واضطربت مشاعرها، وأحسّت بالمهانة أن يسافر، يغيب، لا يسأل ثمّ يعود ويجدها منتظرة في بيت أهله، وجدت نفسها تبكي بحرقة دون قصد، جاءت على إثر نحيبها المعاونة تسألها عمّا حدث، أمسكت هاتفها وقالت "أمّي مريضة سوف أغادر الآن، أخبري العمّة". ونزلت الدرج مسرعة وهي تبكي، وقامت خلال أقل من ربع ساعة بتجهيز حقيبتها بالقليل من الثياب؛ ووضعت ثياب أولادها وأغراضهم كأنها تخشى أن يظهر عماد الآن. سمعت زينب بما حدث وعرضت عليها إيصالها، وفي السيارة أخبرتها بالحقيقة، فردت زينب "الحمد لله– أن أمّكِ بخير"، وأوصلتها مع أبنائها إلى بيت أهلها وهي تنصحها بالتروي بأي قرار تتخذه وتستفتي قلبها.

تنفست هدى الصعداء عندما وصلت؛ وشعرت بالأمان بمجرد دخولها بيت أهلها، وشعرت بقليل من الكرامة رُدت لها، وقررت ألّا تعود إلا إذا جاء إليها معتذرا مالم فالطلاق سيكون قدرها؛ ولا أحد يستطيع الهروب ممّا هو مقدر له. نصحتها أمّها بالتريث وأن ما حدث قد حدث، وعليها أن تحافظ على زوجها وبيتها.

- عليه الاعتذار يا أمّي، عليه تبرير ما حدث، وسبب هذا الانقطاع دون أن يهاتف أبنائه ودون أن يضعهم في الاعتبار وهو يعيش مغامرة شاب خالٍ من المسؤولية، قالت هدى لأمّها. وأكملت:

- لقد كسر طوق الأمان في حياتنا، قد أسامح ولكني لن أنسى أنه فكر ذات يوم بالرحيل دون أن يشركني أو حتى يبلغني، غريبة! عاملني كأني غريبة عنه.
- للرجال شأنهم الخاص يا ابنتي، لا ترميه لزوجة ثانية، ولا تنسي؛ الكثير من الرجال عندما يتركون الزوجة يهملون الأولاد؛ ويلتهون بالأسرة الجديدة، فلا تجني على أبنائكِ.

أكدت هدى على كلامها:

- نعم يا أمّي أعرف؛ وهذا ما حدث من وهيب.

واستها الأمّ وأضافت:

- لا تنسي عمتكِ إذا غضبتْ من خروجكِ ستجبره على طلاقكِ؛ وستجد له الزوجة الجديدة في يومين.

أمّنت هدى على كلام أمّها بهزة رأس؛ وهي تحاول أن تسبر أغوار مشاعرها وفكرت في نفسها "لو عليّ الاختيار بحرية كاملة لا يشوبها خوفٌ أو قلقٌ؛ لاخترت الطلاق لقد كسر حبي له، لم أعُد أشعر بالأمان معه" لا ح طيف عماد أمام خيالها، حنت واحتارت وعادت تفكر "هل فعلا أريد الطلاق؟".

*****

كان عبد الله في حجرة أمّه يزورها مع سميرة والأبناء، جلس يحدثها عن شؤون مزارع العنب وحِرب القات، بينما الأولاد في الحجرة المجاورة "حجرة الأطفال".

- عمّي، هل يمكن لي أن أتكلم مع أبي من هاتفك؟ جاء ياسر ابن وهيب الأكبر يسأل عمّه.
- ولِما؟" سأل العم قبل أن يتنبه لغرابة سؤاله، فمن حق الابن محادثه أبيه دون أي سبب، فعدّل سؤاله مباشرة:
- أقصد هل هناك مشكلة؟

رد الولد بصوت ظهرت فيه نبرة الغضب واضحة على غير المعتاد منه:

- لا شيء مهم، طلبوا مقابلته في المدرسة، إذا كنت لا تريد إزعاجه فأنسَ الأمر.

وغادر، ناداه عمه فلم يستجِب؛ ونزلا مسرعا إلى حجرة أمّه. تنبه العم أن لا أحد يتابع أولاد أخيه وهيب في المدرسة؛ وجميلة لا تستطيع القيام بهذه المهام، فقد كانت مسؤولية وهيب؛ ولم يكن يشركها معه.

عندما أنهى عبد الله زيارة أمّه نزل مغادرا، ونادى جميلة:

- أختي جميلة، فخرجت مباشرة مرتدية حجابها، وكأنها تعلم بأنه سينادي عليها قبيل مغادرته.
- ما مشكلة ياسر؟

سردت عليه جميلة الموضوع وكيف تدهور مستواه في المدرسة، رغم أن هدى ظلت تشرح له ما لا يفهمه، كما أخبرته أن ملاحظات وصلت لها على دفتره، بأنه يُسبب مشاكل لأصدقائه، ويهرب من الحصص مع أحد أصدقائه من الفصل، ويتصرف بعنف واستهتار، وأكملت:

- والمشكلة الأساسية أنه يرغب بالذهاب إلى القرية.

فتعجّب عبد الله:

- أي قرية؟

ردت جميلة بحذر:

- قريتي! كما تعلم لقد عرفها عندما ذهبنا يوم موت أبي، يرغب بالذهاب إلى هناك والعيش مع أخواله.

انزعج عبد الله ومسك هاتفه وبحث قليلاً قبل أن يرفعه "وهيب أين أنت؟" سمعته جميلة يقول وهو يغادر؛ فخفق قلبها لسماع اسم وهيب، وحنّت لصوته وشعرت بالقهر والعجز كونها لا تستطيع مهاتفته. ودّعتها سميرة ولحقته مع الأطفال.

*****

لم تهدأ روح جميلة لغياب وهيب ولم تفهم السبب، وظلت تراودها أحلامٌ كثيرة عن عودته، وذات ليلة وقبل أن ينبلج الفجر شعرت أن ثمّة حركة بالحجرة، فتحت عينيها فرأت وهيب جالساً على المقعد المقابل للمرايا، ينظر إليها تارة

وإلى ابنتهما النائمة بجانبها تارة أخرى، دهشت وتساءلت "أهذا أنت وهيب؟ هل عُدت؟"، لم يرد عليها وواصل النظر إليها صامتا كما هي معتادة منه، نهض وخطى نحو السرير، تمدد في بقعته المعتادة وبينهما الطفلة نائمة، مدّت يدها له؛ فتشابكت الأصابع واعتراها شوقٌ وحنينٌ غزا قلبها المتيّم به، ابتسمت له بينما ظل ناظرا إليها بصمت عميق، تراقص النوم في عينيها؛ سحبها وفكرت "يا إلهي إن النوم سلطان"، وعندما عادت لفتح عينيها كان الفجر يرسل ضوءه الخافت من فتحة الستارة، حاولت أن تتذكر، نعم! وهيب كان هنا، نظرت حولها، كانت الحجرة خالية منه، ابنتها ما زالت نائمة، قامت لصلاة الفجر وعادت إلى فراشها تتساءل هل كان حلم؟ وإذا عاد لِما غادر؟ هل أساءت استقباله فغضب ورحل؟ انتظرت الصباح على فراشها وهي في دوامة من الأفكار، نهضت تقوم بواجباتها المعتادة، وصعدت لتحضير وجبة الإفطار، وجدت المعاونة هناك، فكرت إن كان هو وهيب فلا شك أنه لم يأتِ بالفجر، ربما أتى مبكرا وهي نائمة، سألت بصوتٍ واهنٍ متغلبةً على خجلها:

- هل أتى وهيب بالأمس؟

نظرت إليها المعاونة باستغراب، وأجابت:

- لم أرَه.

عادت تسأل بأمل:

- ربما في حجرة العمّة؟

ونفس الرد:

- **لا، ليس هناك.**

أخذت ما أعدّته ونزلت، وهي ما زالت تؤكد لنفسها أنها رأته؛ ولو لم يغلبها النوم لكانت حدثته وتمسكت بوجوده، وسقطت دموعها على خديها، مسحتها بسرعة وهي تسمع نداء ابنتها لها؛ بينما هرولت المعاونة إلى حجرة العمّة تحكي لها بقلق عن جميلة التي ترى وهيب وهو غير موجود.

*****

أخبرت زينب هدى عبر الهاتف:

- **هدى، لقد عاد عماد منذ يومين، وأعتذر لأمّه كثيرا فرضيت عنه وسامحته، وحرّضته على الزواج من أخرى، قالت له لقد تركتْ البيت عندما سمعتْ أنك ستعود؛ وأدّعت أن أمها مريضة، لا تدعها تذلك فأنت رجل.**

سألتها بلهفة:

- **ألم يسأل عن أبنائه؟**
- **لا أدري يا هدى، تصرفي بسرعة قبل أن تؤثر العمّة عليه.**
- **ولكن ماذا أعمل يا زينب؟ ما عليّ إلا الانتظار. قالت هدى باستسلام.**

غضبت زينب وقالت لها بحِدة:

- هذا زوجكِ، ومن حقه أن تستمعي له، حاول أن يجد له مخرجاً من التعاسة التي نعيشها بشكل يومي في بلد يقتل الأحلام، فلِما لا تسمعينه، تخففين عنه ثقل الفشل والتعثر، هو زوجكِ وهي حياتكِ فلما لا تبذلين جهدا للحفاظ عليها؟ هذا ليس ضعف منكِ، بل قوة يحتاجها زوجكِ.

ردت هدى:

- نعم، كلامكِ سليم ولكن لا أستطيع أن أبادر بالعودة يا زينب، بماذا أبرر؟ ليس معي إلا الانتظار. كما ان كمية الغضب داخلي أصبحت طوفان ولا أعتقد ان علاقتنا ستستمر بعد الطوفان.
- إذن أقضي بعض من الوقت لتخفيف الطوفان الذي بداخلك، حوليه لنهر سلس يغذي حياتكم.

أنهت زينب مكالمتها، وزفرت بصوت عالٍ وفكرت "إلى متى سنظل عاجزات عن التعبير عمّا يغضبنا وما يزعجنا بهدوء ويسر؟ إلى متى سنفقد القدرة على الحوار والنقاش بدلاً من تدمير أسرنا؟ ونظل ننتظر من الرجال أن يفهمونا دون أن نتكلم، ودون حتى أن نعبر عن مشاعرنا".

*****

عادت جميلة من الجمعية تحمل في قلبها فرحة تنمو بأمل، فقد أبلغتها مديرة الجمعية أن مدربة التطريز سوف تعود لقريتها؛ وسيكون مكانها شاغراً وقد قررت أن تعطيه لجميلة "الراتب ليس عالياً والدوام حتى الساعة 12 فقط". أخبرتها مديرة الجمعية وأكملت "وهي البداية بالنسبة لكِ، كما يمكن لك الاستمرار في بيع تطريزاتك في معرض الجمعية"، فوافقت جميلة بحماس كبير وفرحت أن أصبحت موظفة ولها راتب. وعادت بذاكرتها للبداية، "كيف استطاعت زينب اقناع العمة؟ ولكن قبل هذا، كيف فكرت بهذا الفكرة. تعلمت وعملت في نفس الوقت ودون أي مشاكل، رائعة يا زينب".

- أتى أبي اليوم إلى المدرسة. دخل ياسر وقال لأمّه بنبرة غاضبة.

ماتت فرحتها التي حملتها معها طوال اليوم، سألت بانفعال وترقب:

- هل احتضنك؟ قبّلك؟ فرح لرؤيتك؟ سألته جميلة مخفية لهفتها قدر الإمكان.
- قال لي كيف حالك؟ وكيف إخوتك؟
- فقط! سألت جميلة.
- فقط، رد ياسر وهو يغادر مُمسكا بدفاتره وينظر إليها بحنق، كأن لهفتها لم ترَق له، وأكمل قبل أن يخرج:
- كان يريد إعطائي نقودا، رفضت يا أمّي رفضت بشدة، ردت أمّه:
- أحسنت يا ابني.

عادت إلى التطريز وهي حزينة، "نعم لقد تزوج زوجة أخرى، ولكن لِما مسحني من حياته؟ لِما أهمل أولاده، يعلم بأني ما كنت سأُحرك ساكنا بخصوص زواجه، يعلم بأني مهما حزنت سأرضخ، يعلم أن لا سند لي ولا أحد سيعاتبه أو يجادله من أجلي، فلِما لا يعود؟"، "يعدل بيني وبينها، لا مانع أن يعطيها وقتا واهتماما أكثر، لكن فليعطي لي أو لأولاده على الأقل شيئاً من الاهتمام"، "لماذا لم يحبني مثلما أحببته بما قصرت؟"، "هل سيطلقني؟ لن أراه مرة أخرى؟ رغم كل شيء ما زلت أحبّه كثيراً؛ هو حياتي فكيف لا أحبّه؟" تواردت الأفكار إلى ذهنها وعصفت قلبها، صارعت الخوف والقلق والحزن وحيدة لا أحد تبث له حزنها، ونزلت دموعها بصمت؛ فلم تشعر بها ابنتها الجالسة تلعب بجانبها على السرير.

*****

هذه المرة لم تغادر زينب بيت أهل زوجها مبكرة، انتظرت حتى اقترب موعد ولادتها التي حددته الطبيبة، اعترضت أمّها ولكنها أصرّت، وعندما اقترب موعد الولادة، قالت لصالح:

- سأذهب إلى بيت أبي، أعتقد بأني سألد في بداية الأسبوع القادم، وأكملت وهي ترتب الثياب في الحقائب:
- سأذهب بالسيارة لا تشغل بالك بي.
- أبلغيني عندما تصِلين. جاوبها صالح وهو يغادر حاملاً القات وقارورة المياه المعدنية.

أكملت جمْع ثيابها وثياب أكرم وهي تفكر "آن أوان اتخاذ القرار"، وأغلقت حقيبتها. جاءت جميلة على إثر خروج صالح، وهي حزينة وساعدت زينب في سحب الحقائب، وهي تقول:

- ماذا حدث؟ لقد بقيتُ وحيدة في هذا الطابق.

وسقطت دموعها وهي تضحك، وكررت:

- ماذا حدث؟

عانقتها زينب، وقالت:

- لا تقلقي دوام الحال من المحال، ستُفرج بإذن الله.

ومسكت يد ابنها وصعدت سريعا وودعت العمّة ونزلت، لبست جميلة عبايتها وحجابها والنقاب سريعا، وخرجت تساعد زينب في وضع الحقائب داخل السيارة وهي تقول:

- كأنكِ تنوين البقاء فترة طويلة، لِما كل هذه الأغراض؟

- حرصتُ على ألّا ينقص أكرم شيءٌ من احتياجاته، ردت زينب باقتضاب.

عادت جميلة إلى مدخل البيت وهي تمسح دموعها من خلف النقاب، وصاحت مودعة لها:

- أرجوكِ لا تتأخري هذه المرة.

تحركت سيارة زينب، " لن أعود سامحيني يا جميلة" همست زينب لنفسها.

*****

خلا طابق الزوجات من الحياة، صعد صالح للنوم في حجرة الأطفال، بينما كان عماد محتلاً حجرة إشراق منذ عودته، وبقيت جميلة مع ابنتها في حجرتها، واحتل أولادها حجرة عماد وقد خلت من أصحابها الأصليين، خيّم الصمت على الطابق، حتى أطفال جميلة فقدوا المرح وافتقدوا رفقة أولاد عمهم عماد والصغير أكرم. شغلت جميلة نفسها بالعمل كثيرا حتى ألّمتها عيناها، وحاولت جاهدةً مساعدة أطفالها بغياب هدى وزينب اللاتي كانتا تساعدان أولادها في دروسهم، وشعرت بالغربة والضعف والوحدة، تساءلت في نفسها "لِما لم أجد لي مكاناً في هذه الحياة؟ لِما لم تضمني القرية؟ ولم تتقبلني المدينة؟ لِما كتب لي الله هذا القدر؟ بما أخطأت وأنال الآن عقابي؟" تبكي عندما يذهب أطفالها إلى غرفة الجلوس، وتمسح دموعها عندما يعودون، وظلت تنتظر فمن المحال أن يبقى هذا الحال، "لا شك أن الطلاق آتٍ لا محال" فكرت في حزن ويأس واستسلام.

*****

- لا أريدك أن تحزن لرحيل هدى يا عماد، إنّها الخاسرة، على الزوجات تحمُّل ما تحمِله لهن الظروف، أن الغضب والعودة لبيت الأب ليس من تصرفات الزوجات العاقلات، قالت الأمّ وهي تجلس في مجلسها مع عماد الذي كان مستلقيا بجانبها على فراش المجلس، وشاردا في تفكيره، وعادت تكمل عندما لم تجد منه اعتراض:

- هل تعلم أن ابنة خالتك سمر أصبحت شابة في الثامنة عشر من عمرها؟

وضحكت وهي تكمل:

- إن خالتك تحبُّك كثيراً وستفرح لو خطبنا لك ابنتها.

نهض عماد من رقدته، وهو يقهقه، وأجابها:

- هل يُعقل اقتراحكِ يا أمّي، قبل أن أقابل هدى وأعرف مشكلتها، اخترتِ لي عروساً جديدة؟؟ ومن تلك الطفلة؟ التي كانت لوقت قريب تلعب في حوش المنزل.
- لقد كبرت، لا أحد يبقى صغيرا.
- أمي دعينا نحل الأمور ولا نعقدها، هل هان عليكِ علي ويوسف فتحرميهما من بقاء أمهما وأبوهما معاً؟

ونهض مغادرا الحجرة وهو يضحك ويردد "سمر الطفلة" وسمع أمّه تقول "الله يصلح الحال، هذا ما نريده".

*****

(18)

- عليك العودة لحجرتك يا عماد، إشراق سوف تعود من مصر. قالت العمّة بصوت ضعيف، وهي تخطو بخطوات واهنة نحو حجرة إشراق.
- علينا تنظيفها وتجهيزها.

سأل عماد وهو ما زال مستلقياً على السرير:

- هل أنهت دراستها؟
- لا أنهت زواجها، ردت العمّة بحنق.

عاد عماد يسأل وهو ينهض من السرير مندهشاً.

- ماذا؟ كيف؟ ومتى؟ إذن لن تكمل دراستها.
- ستأتي إجازة، وستعود لإكمال دراستها مثلما تريد ولن نضطرها للبحث عن رجل آخر تُكمل معه دراستها.

ردت الأمّ بعصبية.

لاذ عماد بالصمت وهو يجمع ثيابه من الحجرة في حيرة ممّا حدث ومن موقف الأمّ. كانت إشراق قد شكْتْ لأمّها على الهاتف أن زوجها يريد منها إنجاب طفل، ولكنها لا ترغب، ليس لديها وقت؛ وعليها أن تنهي دراستها أولا ثمّ تفكر بموضوع الأطفال.

- لكن هذا من حقه يا ابنتي، نصحت الأمّ ابنتها.

- لا أعتقد أني سأستمر معه يا أمّي، لقد أخطأت، قالت إشراق لأمّها عبر الهاتف وهي تبكي.
- قدر ونصيب يا إشراق نتحمل أسبابه وتتحملين نتائجه، ردت عليها أمّها بحزن.

فأجابتها:

- بل أتحمل أنا كل شيء، اخترت حلاً خاطئاً، إنه رجل يريدني ملكاً خالصاً له، وقتي، اهتمامي، كل شيء له، لا يعطيني مساحة اتنفس، أهتم بما يخصني، إنه يخنقني كل يوم.

****

قال عبد الله لشقيقه عماد:

- من الغد تعال للشركة وخذ مكان وهيب طالما لم تستطِع العودة لعملك السابق، وهذا أفضل فقد تكون خير معاون لي، طال بقاؤك وأنت تنتظر أن يعيدوك للعمل ولم تجد عمل بديل.

سعد عماد بخبر العمل مع أخيه؛ فقد حاول إيجاد عمل ولم يجد أي فرصة.

ثم أكمل عبد الله بحزم:

- وعليك أن تراضي زوجتك، يجب أن تكون صاحب قرار، لا تهدم بيتك من أجل أوقات كانت عصيبة على الجميع، من حق هدى أن تحزن،

ومن حقها أن تعتذر لها وتطلب منها السماح، الزواج مسؤولية والأولاد أمانة، قم بواجبك، لا تلحق بدرب وهيب.

ولم يكن عماد بحاجة للحزم بخصوص أسرته، فمن الأساس كان قد حنَّ لزوجته واشتاق لأطفاله كثيرا، ولكنه كان يتردد مع ما غرست الأمّ في نفسه عن ضرورة الحزم مع الزوجة، التي تترك منزلها دون سبب ، وإعادة تربيتها لتكون دائما الزوجة الصالحة المتحمّلة لكل ما يأتي من زوجها وفقا لتعبيرها، كان ينعقد لسانه أمام أمّه فلا يستطيع أن يقول لها" ولكني أحبُّها يا أمّي"، كان يعتبر هذا الاعتراف ضعف إذا صرح به لأمّه، وهزيمة إذا اعترف به لزوجته، عادت لذاكرته صورة هدى عروس جميلة ضمّتهما حجرته لأول مرة، نظراتها الخجولة، ابتسامتها المرسومة على شفتيها، أحلام وردية رفرفت على تلك الحجرة في ذلك اليوم، رأى فيها امرأة ستدفئ له لياليه، وتحمل له أطفالاً، وهكذا كانت، ورأت هي فيه شريك، سند وأب حاضر، ولم يكن هكذا. شعر عماد بخيبة أمل هدى فيه، وشعر أن الفشل لاحقه حتى في حياته الخاصة، كسر طوق الأمان الذي كانت هدى تنشده منه، وتردده له دائما، والآن كيف يمكن ترميم جرح نزف كما يعلم منذ طفولتها، واعتقدت أن علاجه سيكون على يد عماد، ولكنه عمد إلى الجرح ونبشه بكل أنانية فنزف مرة أخرى خوفاً وحزناً، شعر بحب هدى يملأُ قلبه، أننا لا نشعر بالأشخاص وحبّهم إلا عندما يرحلون وتصبح أماكنهم فارغة، باردة، هل ما زال هناك أمل؟ هل ستسامحه؟ هل سيعيد أسرته إلى حضنه؟

ومع كل هذه الهواجس والحيرة التي لازمت عماد طوال الليل، فلم ينم جيداً، إلا أنه غادر المنزل مبكرا متوجها لمنزل أهل زوجته حاملاً الهدايا التي اشتراها لها ولأولاده؛ وبقيت معه منذ أن وصل من تركيا. دق الباب وهو مترقب لما سيحدث، استقبله الأب بلطف فأطمأن قليلا، جرى أطفاله لاستقباله محدثين ضجيج مفرح، وجاءت الأمّ مرحبةً ومعتذرةً أن هدى نائمة في حجرتها، شجّعه الترحيب أن يستأذن بالدخول لحجرتها، وكان له ما طلب.

سمعت هدى وهي في حجرتها أصوات أولادها وبهجتهم بوصول أبيهم المفاجئ؛ وعادت تسترجع نصيحة زينب "هذا زوجكِ ومن حقه أن تستمعي له، حاول أن يجد مخرجاً من التعاسة التي نعيشها بشكل يومي في بلد يقتل الأحلام، فلِما لا تسمعينه؟ خففي عنه ثقل الفشل والتعثر، هو زوجكِ وهي حياتكِ فلما لا تبذلين جهدا للحفاظ عليها، هذا ليس ضعف منكِ هذه قوة يحتاجها زوجكِ". تذكرتْ كم أحبّته منذ الأيام الأولى للزواج، قلبها بكر لم يحتله رجلٌ من قبل حتى أبيها كان في زاوية بعيدة داخل القلب، أحبّت عماد بكل ما كانت تلحظ عليه من أحلام وخيال، أحبّت أولادها منه، أحبّت حياتها معه كيفما كانت وما لم تتوقعه أن يخطط للرحيل دون علمها، أن يمضي شهورا طويلة دونها، شككها شبح الماضي أن يعود ويصبح حاضرها ومستقبلها. كان الطوفان الذي توقعته في قلبها غضبا من عماد قد تحول فعلا إلى شوق وحنين له.

*****

دخل عماد حجرة زوجته، ووجدها على حافة سريرها تمسح دموعها، شعر بحبها الكبير في قلبه، احتضنها وهمس لها:

- سامحيني، لقد اشتقت لكِ ولا اتحمل بُعدكِ بعد اليوم، أخطأت سامحيني.

ردت عليه همسا:

- تجاهلتني يا عماد، خططت للسفر وحتى لم تبلغني، إني شريكة حياتك، لا يصح أن تترك هكذا دون أن يكون لي علم، فقدت الأمان معك يا عماد.

نظر إليها عماد بأسى، وقال:

- خشيت أن ترفضي، خشيت أن تعلمي أمي وتطير عليّ الفرصة التي كنت أتوقع أن تكون باب لحياة أفضل، هدى.. هل ما نعيشه في هذه الظروف يُعتبر حياة؟ هل ما يبشر به المستقبل هو ما نتمناه لأولادنا؟

وضعت هدى يدها على شفتيه تمنعه من إكمال الشكوى، وقالت:

- لم أعترض في يومٍ ما على محاولاتك، ولم أعترض حتى على التعثرات التي مررتَ بها، بالعكس أتمنى أن نحيا حياة أفضل، لكنك لم تخبرني، لم تشركني بالقرار، لقد أفقدتني الثقة بك.

مسك يدها وقبّلها قائلا:

- سامحيني، خنقتني الظروف، سامحيني، أعدكِ أني سأشركك بأي فكرة أفكر بها، وأعدكِ أننا سنكون معا دائما، ولا مشروع دون بقائنا معا، فقط سامحيني. صمت لثوانٍ، وأكمل:
- كما أني عاتب عليكِ يا هدى، تركتِ البيت بمجرد علمكِ أني عائد بدلاً من الانتظار لمجيئي حتى أشرح لكِ حالي، غادرتِ ببساطة وأنتِ تعلمين مقدار شوقي لكِ وللأولاد.
- نعم أعترف أني أخطأت، أخطأنا بحق أنفسنا، سامحني أنت أيضا يا عماد.

ابتسم لها وضمّا بعضهم البعض وتصالحا.

قضى عماد ذلك اليوم هناك؛ تناول طعام الغداء مع هدى وأطفاله وأهلها وتصافت القلوب، قصّ عليهم رحلته إلى تركيا مبتلعا مرارة الفشل قائلا:

- عندما غادرت اليمن، شعرت أني بصدد البدء بصفحة جديدة في حياتي، ناصعة البياض، سأخط عليها أجمل الأحلام. وصلت بعد رحلة شاقة من صنعاء إلى الأردن، انتظرت ساعات طويلة في مطار الأردن للإجراءات الأمنية، حزّ بنفسي كيف أصبح جواز السفر اليمني محل شبهة، كأني دخيل ينوي البقاء، والمؤسف أنها حقيقية! عندما انتهت الاجراءات غادرت إلى اسطنبول.

توقف عماد ناظرا إليهم، ونظر إلى زوجته وابتسم وأكمل:

- كانت هذه أول رحلة لي خارج اليمن كما تعلمون، ذُهلت من كل شيء كان يصادفني، كل شيء دون استثناء، الشوارع، البيوت، البشر، ذهلت ورقص قلبي فرحاً وبهجةً، ما هذه البلد؟ وما هذا الجمال؟ أين نحن من كل هذا؟" ليتكِ كنتِ معي يا هدى، إنها جنة الله على الأرض.

وأكمل:

- سكنت في شقة صغيرة مع اثنين من الشباب؛ وصلا من القاهرة منذ أسبوعين، من أجل نفس مشروع المدرسة اليمنية. اهتم بي رفاق الشقة فجابوا بي إسطنبول خلال الثلاثة الأيام الأولى السابقة لموعد اجتماعنا في المدرسة، وجدت نفسي أهيم في حلم، كانت متأكدا أنه حلم، فلا يوجد واقع بهذا الجمال، لم أصادف بحياتي كل هذا السخاء في البهجة والروعة في كل ما يحيط بي. بعدها تم استدعاؤنا فذهبنا إلى المدرسة، كانت أعمالنا كلها إدارية، وكان مبنى المدرسة صغيراً، جميلاً يحيطه حديقة كبيرة منسّقة، وهكذا شعرت أن الحياة تبتسم لي، وتفتح للحظ باباً إلى حياتي.

سأله ابنه:

- هل هناك صور نشاهدها؟

رد عليه أبوه:

- بالتأكيد سوف تشاهد كل الصور، وأكمل قصّته:

- لم يطُل هذا الشعور، فقد كان واضحاً أن الشركاء – وكانوا من رجال الأعمال اليمنيين والأتراك–، قد اختلفوا في نقاط عدة وقت التنفيذ الفعلي لمشروع المدرسة، ولكن العام الدراسي بدأ على أي حال، لم يكن عدد الطلبة كبيراً كما هو متوقع، وتبادل الشركاء التُهم، فمن بنود الاتفاق أن يتم جلب أبناء اليمنيين المتواجدين في تركيا (وهم كثير من الذين نزحوا بعد الحرب)، للمدرسة ولكن هذا لم يحدث كما كان متوقع. مرت الشهور برواتب بسيطة بخلاف ما كان الاتفاق؛ ولا تكفي إلا للاحتياجات اليومية، وتعثّر العام الدراسي، صمّد القليل بمحاولات كبيرة من المدرسين والإداريين (أغلبهم يمنيين) ممّن كان العمل في المدرسة مخرجاً لحياتهم، ولكن مع قُرب انتهاء العام الدراسي تعثرت الأمور أكثر، تخلّت المدرسة عن أغلب الإداريين في محاولة لتقليص النفقات؛ وكنت من ضمنهم كما قد تتوقعون الآن.

صمت فترة وقد ظهر الأسى على وجهه، ثم عاد وأكمل:

- لم أتوقع أن تكون هذه هي النهاية، وبهذه السرعة، استغليت ما تبقى من فترة إقامتي في تركيا في محاولات عدة، حاولتُ حث أصحابي الذين تخلت عنهم المدرسة بفتح مكتبة للكتب العربية، حادثت بعضاً من رجال الأعمال اليمنيين الذين استطعت الوصول إليهم، شرحت لهم

المشروع، وظللت على هذا الحال، أحاول وأحاول إلى أن لفظتْ أحلامي أنفاسها الأخيرة وانتهت إقامتي، وختم عماد حكايته قائلا:

- الفشل يلاحقني في كل بقاع العالم، الخلل ليس في بلدي، الخلل فيّ أنا.

رد عليه أبو هدى:

- إنها تجربة يا ابني، كان مُقدّر لك أن تعيشها، لا يُلام من يحاول أن يُحسن حياته أو يحقق أحلامه.

- نعم، ولكن الثمن كان غالياً! ونظر لهدى التي ابتسمت له، ونهضت تجهز حقائبها للعودة معه.

غادرا معاً متوجهين للمنزل، فتحت لهم جميلة الباب وحولها أطفالها (وكانت هدى قد هاتفتها بعودتها)؛ وهي تكاد ترقص فرحا، بينما استقبل الأطفال بعضهم البعض بفرحة وبهجة، كانت الأمّ في طابقها تحمد الله وهي تسمع ضجيج الأحفاد يعود للبيت.

*****

قالت زينب لأمّها وهي مستلقية على السرير؛ وقد اثقلتها بطنها وهي في شهرها التاسع.

- لم ينفذ الشرط الذي بيننا يا أمّي

- ما تقصدين يا ابنتي؟ سألت الأمّ بفزع، وأكملت:

- زينب، النساء يتحمّلن الكثير من أجل الحفاظ على زواجهن، وأنتِ قريبا سيكون لكِ ابن آخر، بالله عليكِ بما تفكرين؟

أغرقت عينا زينب بالدموع، وردت:

- وهل تتوقعين أن ما سأقوله سهلاً عليّ، ولكني لا أستطيع أن أواصل الحياة داخل حجرة، وهم ميسورون، إلى جانب أبي وزوجي بمفردنا قادران على الاستقلال في سكن خاص.

انتفضت الأمّ بغضب، وقالت لها:

- إيّاكِ يا زينب، إيّاك، إنها مرحلة وستمر، وماذا حدث لهدى أو جميلة ولديهن أطفال أكثر منكِ؟

مسحت زينب دموعها وهي تتذكر معاناة هدى وجميلة؛ ولكنها ردت:

- أنا اتحدث عن نفسي؛ ولا أريد أن أقارن نفسي بأحد؛ لكلٍ منهن ظروفها وطريقة تفكيرها.

نهضت الأمّ غير متحمّلة ما تلمح له زينب، وقالت:

- فقط هنّ يحافظن على حياتهن وعلى بقاء الأب مع أولاده، لا وقت الآن للنقاش؛ فلتتم الولادة وسنرى.

وخرجت بغضب تاركة الباب مفتوح. بينما مرّ بخيال زينب جميلة وتساءلت في نفسها "لقد تحمّلت جميلة بالفعل، ولكن أين الأب؟".

لم يكن موقف الأب مماثلاً لموقف الأمّ، جاء إلى حجرتها وهو يحمل لها كوبا من الحليب الدافئ؛ وقال:

- أخبرتني أمكِ بما تفكرين به يا زينب، خذي اشربي الحليب وانسي كل شيء لا تفكري حتى تضعي مولودكِ، يجب أن تعرفي أن النساء في حملهن يضطرب عندهن التفكير ويميلنّ إلى الكآبة، فلا تتخذي أي قرار الآن.

صمت ينظر إليها بحنان؛ وأكمل:

- ولكن، أنا معكِ؛ إن كان قراركِ يا ابنتي فأنتِ من تعيش التجربة، وأنتِ من تستطيع الحكم عليها، ولكن انتظري فقط حتى الولادة.

ثم قبّلها وأخذ أكرم من حضنها وغادر. بكت زينب وهي محتارة؛ ولكنها كانت تعلم لو عادت على نفس الوضع؛ فلن تأتي فرصة أخرى حتى يتغير الوضع؛ فولادة الطفل الثاني حدثٌ مهم؛ ويستلزم اتخاذ القرار ولكن ستنتظر وستتبع نصيحة أبيها، وبكل الأحول فقد اقترب موعد الولادة.

*****

ولدت زينب، ورُزقت بولدٍ آخر أسمته كريم، فصار لديها أكرم وكريم، لم تبلغ زوجها بذهابها مع أمّها للمشفى؛ وأخبرته عندما عادت للبيت، تفاجأ من تصرفها وعاتبها بقسوة، وأخبرها بأنه سيأتي حالا، طلبت منه أن يجلب معه بعض الأغراض من حجرتها قبل أن يأتي إلى منزل أهلها؛ فوعدها بذلك.

- لا شيء في دولابكِ يا زينب! لم أجد شيئاً أنه خالٍ تماما، قال لها مستفسرا باستغراب بعد أن قبّلها وقبّل المولود الجديد؛ وقد ذهب غضبه برؤية المولود.

سألت:

- وهل فهمت لماذا؟

نظر إليها صالح مستفسرا وهو ممسك في حضنه ابنه المولود، فقالت:

- لن أعود يا صالح إلا إلى سكن مستقل، ولن أربي ولدين داخل غرفة؛ ولن أرسل أكرم إلى الحجرة في الأعلى ليكون الخامس أو السادس في حجرة واحدة.

- لم أفهم!!، استفسر صالح باضطراب واضعا المولود في سريره، ردت:

- لقد أخذت كل أغراضي وأغراض أكرم ولن أعود، كان شرطا من شروط الموافقة على الزواج، أعطيتك مهلة طويلة، الآن حان الوقت، وعليك أن تختار إمّا نبني بيتنا؛ أو تبقي في بيت أهلك وأبقى في بيت أهلي.

خرج صالح من منزل أهل زينب، لم يتجه إلى المقيل كما كان مخططا، بل عرج إلى مكتب العقارات الخاص بصديقه؛ وجلس في مجلسه، وطلب منه البحث عن شقة مناسبة الآن. ترك لصديقه ربطة القات؛ وذهب إلى منزله، وكانت من أندر الأيام التي لا يُخزِن فيها (يتناول القات).

طرق صالح باب حجرة أمّه، وسمعها تقول:

- ادخلي.

متوقعة أنها المعاونة، دخل صالح ووجدها في مجلسها الصغير؛ تشرب القهوة والمسبحة في يدها، جثا بالأرض أمام قدميها، وغطى وجهه في حضنها:

- أمي أنا بين نارين، لا أريد أن أخسر رضاكِ عني، ولا أريد أن أفقد أسرتي.

رفع رأسه، وعاد يقول:

- لقد كان شرط الزواج يا أمّي، واعطتني زينب وقتا طويلا، أمّي، لا يمكن لي ولها مع طفلين أن نبقى بحجرة واحدة، لا يمكن أن نرسل أكرم بهذا العمر الصغير إلى حجرة الأطفال.

ظهرت الدموع في مقلتيه، وأكمل:

- باركي لي المولود الجديد، وباركي لنا الانتقال إلى سكن مستقل حتى ينعم قلبي بالراحة، لا أستطيع أن أنتقل دون رضاكِ.

تأملته أمّه طويلا؛ وقالت بصوت مستسلم وهي تحتضن رأسه:

- ما شاء الله كان يا ابني، فليبارك لكم الله حياتكم، إني لا أسعى إلا لبقائكم معا كإخوة، الحياة تحتاج ترابط وتعاضد، ولكن هذا حال الدنيا، فليبارك لك الله يا صالح؛ زينب فتاة جيدة وتستحق كل الخير، ولكن عدني بزياراتك الدائمة لي ولإخوتك.

أشرقت الفرحة بوجهه، وقبّل يدي أمّه وهو يقول:

- أعدك يا أغلى من أحبُّ.

وأكمل يومه معها يتبادلان أحاديث متنوعة من هنا ومن هناك؛ ويضحكا على مواقف من طفولته، وغادر مع أذان المغرب.

*****

وجد صالح شقة في عمارة في شارع متفرع من شارع الزبيري مكوّنة من ثلاثة طوابق، كل طابق شقتين وتحتها محلات. كانت العمارة مزدحمة وأمام المحلات يتجمع كثيرٌ من المتبضعين ومن الشباب، لم يعجب صالح الوضع كثيراً؛ ولكن هذا ما كان متوفراً ومناسباً لميزانيته وملائماً أيضا، فالشقة كانت واسعة وتحتوي على ثلاث غرف ومجلس وحمامين والمطبخ.

عادت زينب بعد أسبوعين من ولادتها؛ وكان صالح قد أفرغ محتوى الغرفة إلى الشقة الجديدة، فجلست مع هدى وجميلة اللاتي كنْ متأثرات برحيلها وكلاهن يعرفنْ أنها هي وحدها من خلقت جو عائلي؛ وقاربت بينهن، كانت جميلة بالفعل تفتقد زينب عندما تذهب إلى بيت أهلها؛ فكيف اليوم وهي تغادر المنزل نهائيا.

قالت هدى لزينب:

- أنكِ امرأة واعية يا زينب فكرتِ بهذا الشرط؛ فالحقيقة أن البيت هنا أصبح ضيقاً، وتقارب غرف النوم جعلتنا مُقيّدات ومرتديات حجاباتنا طوال اليوم. كما أن أبسط مشادّة أو نقاش بين الزوجين يكون مسموعاً للآخرين، لا يوجد خصوصية.

- نعم، بقدر ما هو جميل وجود العائلة مع بعضها إلا أن وضعنا هذا قد أصبح قيدا كبيرا، وحتى حجرة الأولاد أصبحت مزدحمة وبعيدة عن الأمهات.

شاركت جميلة قائلة:

- فعلا، لطالما عانيت عند مرض أحد الأولاد من الصعود عدة مرات لتفقده، وأحيانا اضطر لفرش فراش بأرض الغرفة، وأنام فيه مع ابنتي. ولكني لا أتصور نفسي في بيت بمفردي، لا أدري كيف سيكون الوضع، أخشى أن أكون وحيدة بغياب وهيب.

ردت هدى:

- العكس، أنا أفضل الاستقلال؛ يمكنكِ ترتيب وتنظيم البيت كما تشائين، وطهي ما ترغبين، والبقاء حرة في ارتداء ما تحبّين، وأنتِ تتجولين في بيتكِ. والأهم من ذلك، يمكنكِ دعوة أهلكِ وصديقاتكِ إلى البيت كما ترغبين ودون قيود.

ردت جميلة:

- كلامكِ جميل؛ ولكن بالنسبة لي لا أهل أدعوهم ولا صديقات.

جاوبتها زينب:

- نحن أهلكِ، والآن طالما بدأتِ العمل سيكون لك صديقات.

أنساب الحديث بينهن شجيًّاً ومتنوّعاً، وقد طرحت كلٌّ منهن أحلامها ومخاوفها، ثم ساد الصمت بينما كانت أصوات الأطفال تصل إليهن من حوش المنزل تمنح اللحظة دفئاً خاصاً يذكرهن بدفء العائلة الممتدة، ثم نهضت زينب؛ وقالت:

- عليّ توديع العمّة.

صعدت زينب إلى أعلى، وودعت العمّة والمعاونة، ولم تزد العمة على قول "الله معكم خير حافظ" كانت ملامحها هادئة لا يوجد للغضب أثر. فخرجت زينب وهي تشعر بالراحة وتفكر "سأجعل من زياراتي عادة دائمة حتى لا يفقد أولادي جو العائلة وصحبة أولاد أعمامهم."

انتقلت زينب إلى الشقة الجديدة، وأكملت أثاثها بما وفرت من راتبها، وذهبت المعاونة معها لمساعدتها، وعادت لتقص على العمّة عن جمال الشقة، واتساعها، إذ تحتوي على ثلاث غرف واسعة لها نوافذ كبيرة يدخل من خلالها الضوء والشمس، وتحتوي على مجلس متوسط الحجم وصالة عائلة ومطبخ كبير– يمكن وضع سفرة الأكل فيه، وملحق به مخزن صغير. وحدثتها عن جمال الحي واتساع الحوش المحيط بالعمارة.

وبعد أن استقرت زينب في شقتها الجديدة، دعت الكل لزيارتها، فلبت الدعوة سميرة وهدى وجميلة وأولادهن، ولم تقبل العمة بالذهاب متعللة بتعبها.

ولكنها في اليوم التالي وبينما كانت متجهة إلى المطبخ لجلب قهوة لها، سمعت هذا الحوار بين هدى وجميلة، كانت هدى تقول:

- إنها محظوظة عندما اشترطت الاستقلال ببيت منفرد، هل لاحظتِ وسع الشقة، والضوء داخلها من كل مكان.
- نعم، إنها شقة جميلة، ولكن ما أحزنني إلا نظرات أولادي لحجرة أكرم وكريم.
- لو كان الطابق الأعلى مكتملاً لكان يمكن لنا التوسع.
- فعلا! فحجرة الأولاد أصبحت مزدحمة، ولم يعُد الوضع مريحاً.
- وكيف سيكون الوضع لو لم تنتقل زينب وتم نقل أكرم للأعلى مع ابني الثاني! سيكون تكدس غير صحي.
- نعم ستة أطفال كثير.

عادت العمّة بعد سماع هذا الحديث إلى حجرتها مكتئبة، ونادت للمعاونة لجلب القهوة لها، وجلست في مجلسها تسبح لله وتفكر، وعندما جلبت المعاونة القهوة طلبت منها العمّة أن تجلس معها، وقصّت عليها ما سمعته من حوار وسألتها عن رأيها، فقد كانت رفيقة لها؛ لطول ما عاشاه خلال هذه السنيين الطويلة؛ فقالت لها:

- أن الشقة واسعة وحديثة؛ فلهن الحق أن تمنين شقة مثلها؛ ولكن الحياة أصبحت غالية؛ ومن يسكن مجانا فهو فعلا محظوظ.

وفكرت المعاونة قليلاً، وقالت مواسية العمة:

- ماذا لو خسر صالح –لا قدر الله– أو زينب عملهما؟ قد يصبح الايجار همّاً عليهم؛ ولكن السكن في بيت ملك يبقيهم آمنين، ويساعد على تدبير أمور الحياة بشكل أسهل.

سكتت المعاونة والعمة؛ كلٌ تفكر "ماذا ستجلب الحياة؟".

(19)

بعد انتقال زينب لشقتها الجديدة، وصلت إشراق اليمن في زيارة قصيرة، رغم قصر فترة الغياب إلا أنها ظهرت وكأنها قد زادت بالعمر سنوات، استقبلها عماد من المطار، ولم يتحدثا إلا بكلمات قليلة خلال الطريق، كان من الواضح أنه غاضبٌ منها ولا يستطيع التحكُّم بغضبه. وصلت المنزل، الجميع كان في استقبالها، ولكن برود استقبال إخوتها لم يخفُ عليها، صعدت إلى حجرتها لرؤية أمها وصعد معها إخوتها الثلاثة عبد الله، عماد وصالح؛ ودخلوا معها الحجرة وأغلق صالح الباب، بكت في حضن أمّها بينما وقف عبد الله يتحدث بصوت منفعل وغاضب وغير عابئ ببكائها، وقد نصب نفسه قاضيا وحاكما:

- ما هذا الاستهتار، طلاق مرة واحدة، كان عليكِ دعوتنا لمباحثة الموضوع ومحاولة حل المشاكل، ما كنت أتوقعكِ هكذا مستهترة و...

قاطعه صالح مؤيدا وهو ينظر إليها بغضب:

- عليكِ نسيان الدراسة ولن تعودي إلى مصر، هذا حتى تكوني على علم بما جنيتِ على نفسكِ، مُطلقة وفاشلة.

فزعت الأمّ من تصرفات أبنائها، وصرخت:

- ما هذا؟ هل خلت من قلوبكم الرحمة؟!، لم تسترِح من السفر بعد، ألا يمكن لكم الانتظار قليلاً؟!

كانت إشراق تبكي بحرقة وبصوت متقطع؛ صرخت:

- ليس فقط الانتظار حتى أرتاح، ولكن الانتظار حتى تفهموا ما حدث؟ ولِما حدث؟ أنتم من كان السبب بهذه الزيجة الفاشلة، كنتم من اضطرني لها؛ وأنا أعلم منذ أن قابلته أني لن أرتاح معه، ولكني لم أتوقع ما حدث.

طلبت الأم من أبنائها الخروج، فذهب كلٌ في طريقه مع ما فيهم من غضب.

وبدأت إشراق تقص على أمّها قصتها بالتفصيل:

- عندما تزوجت وضحّت لزوجي منذ البداية (قبل حتى الخطوبة) أن هدفي الالتحاق بالدراسة وعليه انتظار انتهائي منها؛ وألّا يطالبني بإنجاب أطفال، وافق تماما وأخبرني أن لديه أطفال ولذا فهو غير مستعجل على المزيد منهم. عندما وصلنا القاهرة تم لي ما أردت، وقبِّل تغيبي الطويل في المستشفى الذي أتدرب فيه، وكان هو نفسه سعيد بالفرصة التي أُتيحت له بالانتقال إلى القاهرة، ولكن لم يطُل الوقت حتى بدأ يطلب مني مصاحبته لكثير من المناسبات الاجتماعية التي كان يحب حضورها ويعتبرها جزءاً من عمله، وعندما كنت اعتذر لانشغالي بدأت المشاكل.

قاطعت الأمّ ابنتها قائلة:

- هذا كان من حقه، كأنك أفرطتِ بالانشغال؟
- لا يا أمّي لقد كان يريد خلق مشاكل، فقد ذهبت معه عدة مشاوير؛ ولكنه بالغ بها، وبعد فترة قصيرة بدأ يصر أن يكون له طفل متناسيا الاتفاق؛ وكأنّها حجة لتوسيع رقعة الخلاف.

صمتت إشراق فترة، تسترجع مرارة التجربة؛ وأكملت:

- ولكن المشاكل وصلت ذروتها عندما تفاجأتُ بوصول زوجته الأولى مع ابنتها الصبية إلى شقتنا، وبرر لي أنهما في إجازة ولا يملك ما يُمكّنه من استئجار سكن خاص بهما؛ فكان الفيصل الأخير الذي سبّب قراري لطلب الطلاق وخاصة عندما علمت أن هذه الإجازة مفتوحة لا وقت محدد لها، وأن احتمال قدوم أولاده الآخرين وارد خلال الفترة القادمة.
- ولِما لم تخبرينا يا ابنتي؟
- كنت أعلم أن إخوتي لن يقبلوا، وكان عليّ القرار بالتخلص من هذا الزواج، فأتممت الموضوع بهدوء ولم يمانع نهائيا؛ فقد شعر أنه لم يكن الزواج الذي يريد، وانتقلتُ للسكن مع زميلات لي وقررت إخباركم قبل عودتي مباشرة.
- خيرة الله يا ابنتي! قدر ومكتوب.

*****

كانت إشراق مستلقية على فراش مجلس أمّها واضعةً رأسها على قدميها، والشمس المائلة للغروب تنفذ بأشعتها من القمرية ملامسةً بالألوان الحمراء والزرقاء وجه إشراق، والأمّ تقرأ من الكتاب الكريم بصوت هامس، والصمت يُغلف المكان، أغمضت إشراق عينيها تجنباً للضوء، ومُحاولَةً لترتيب الأفكار في رأسها.

- سنعود معا يا أمّي.

وأطلقت تنهيدة من أعماق قلبها، وأكملت قبل أن تستوعب الأمّ ما تقوله:

- لقد استأجرت شقة مناسبة في عمارة أغلب سكانها يمنيين، وقريبة من المستشفى الذي أتدرب فيه، تعالي معي يا أمّي، رافقيني في مشواري، سأحضر لكِ مساعدة مصرية أو يمنية، أو حتى أمّي نزيهة يمكن لها القدوم معنا، ماذا تريدين من البقاء هنا؟ أولادكِ كبروا، وأصبح لهم عائلاتهم الخاصة، إني محتاجة لك معي يا أمّي.

ودار بعد هذه المقدمة حديثٌ طويلٌ وشجيٌ بين إشراق وأمّها، هادئٌ وخاصٌ جدا، ولكنه حازمٌ مع كثير من الرجاء من قبل إشراق وتفهُم من قبل الأمّ.

- وكم المتبقي لكِ؟ سألت الأم.

- لا تسألي يا أمي، لا تسألي أرجوكِ! لن أخدعكِ يا أمي لا أرغب بالعودة، عرض عليّ المشفى وظيفة جيدة، سأبقى هناك، سنبقى معا هناك، الوضع هنا صعب، المستشفيات أوضاعها سيئة كثيراً، لا أستطيع أن أعمل في ظل العجز الكبير الذي تعاني منه المستشفيات، سننتظر ما سيأتي به الغيب، وسنزور اليمن دائما، سيأتي إخوتي لزياراتنا، لا تقلقي مصر ليست بعيدة عن اليمن، وربما تتغير الظروف فنعود، سنختار دائما الأفضل.

شردت إشراق قليلاً، وأكملت:

- أمّي، لقد أُصبت بالاكتئاب عندما عملت في المستشفى هنا، حالات صعبة تصل متأخرة بسبب محاولة الأهل حل المشكلة في المنزل وبطرق بدائية حتى يتجنبوا دفع نقود لا يملكوها بالأصل، أطفال، نساء، كبار في السن يصلون وهم على مشارف الموت، وبالأغلب يموتون. الوضع سيء ولا أحد يحرك ساكنا، هل تعلمين أن أحد النساء وصلت في حالة حرجة تستلزم عملية، ولزم عليها دفع مبلغ يعتبر كبيرٌ رغم أنه مستشفى حكومي؟ وعندما عاد زوجها من مكتب المحاسبة شارداً، زائغ العيون، نظر إليها طويلاً وقال لها أنتِ طالق ورحل.

اتسعت عينا الأمّ دهشة وفزع:

- يا الله كم هو رجلٌ قاسٍ؟!، ردت إشراق:
- أمّي، إنه رجلٌ عاجز، وعجزه سبب له لوثة، خرج من المستشفى وهو يقهقه! لقد جُنّ ووجد في الطلاق مخرجاً من تحمُّل مسؤولية عجزه عنها.

صمتت الأمّ، ومسحت دمعة فرت من عينيها، وضمّت ابنتها قائلة:

- فليتولانا الله برحمته.

*****

(20)

لم يعرف أحد ما إذا كانت الأمّ قد وافقت عن قناعة أم أنها اعتبرته واجبا عليها وتكفيرا عن عدم السماح لابنتها بالسفر للدراسة بمفردها، لا أحد يعلم كيف تخلت عن مكانها وحياتها التي لازمتها كل هذه السنيين، ووافقت على المغادرة، ربما لأول مرة تشعر أن ابنتها هي التي تحتاج لها وليس أبناؤها. ولم يعرف أحد كيف دبرت ورتبت هذا الأمر بصبر وبتأنٍ وبتعاون شقيقها وبكتمان لأول مرة عن أولادها حتى لا يشتتوا أفكارها.

وهكذا اجتمعت الأمّ في حجرتها مع أولادها ماعدا وهيب، رغم إبلاغه بأهمية الاجتماع؛ ممهدة لحديثا تعرف أنه لن يمر ببساطة؛ ولكن لن يثنيها عنه أي شيء:

- **لم أتصور في يومٍ ما بأني سأوافق على هكذا قرار! وأكملت بعد صمت لثوانٍ:**
- **على إشراق أن تكمل دراستها في القاهرة.**

ساد الهرج والمرج وهي صامتة، وبعد فترة قصيرة أكملت:

- **لم أكمل بعد، قالت لهم بصوت حاد وعالٍ، فصمتوا وتطلعوا إليها مستغربين من قبولها لهذا الموضوع، فطرحت مفاجأتها:**
- **وسأكون معها.**

لم يستوعب الأولاد كلام أمّهم.

- لم أفهم، قال عبد الله.
- سأذهب وأعيش معها في مصر.

ومرة أخرى ساد الضجيج حجرة الأمّ، وأعلن عبد الله عن رفضه القاطع قائلا:

- لا أتوقع أنكِ ترغبين بالذهاب إلى القاهرة والعيش بعيدة عنا؟

قال عماد وهو يضحك بتهكم:

- هل تعلمين أن إشراق ستكون في المستشفى أغلب اليوم، ستبقين وحيدة طوال الوقت.
- أنا دائما وحيدة، ردت الأمّ، وأكملت:
- وعلى أي حال لقد جمعتكم من أجل أن أبلغكم بالقرار؛ وليس انتظار لردكم أو موافقتكم، اسمعوا ما هي خطتي.

صمتت لثوانٍ وصمت معها الكل، ترقُب، دهشة، وخوف من الآتي، عادت وأكملت:

- سيتم بيع هذا المنزل...." صرخ عماد مقاطعا أمّه:
- ماذا؟؟ لِما؟؟ إنها سنتان أو ثلاث ليس إلا، أين سأذهب؟ وأين ستذهب جميلة وأولادها.

صرخت الأمّ بحدة قائلة:

- اسمعوا ما سيتم للأخير، لقد طلبت مساعدة خالكم ورتبت الكثير من الأمور دون إعلامكم حتى لا يتشتت الموضوع بين آراء مختلفة؛ وما عليكم الآن إلا التنفيذ. صمتت لبرهة وأخذت نفس عميق وأكملت:
- يؤلمني أن أعترف، وفي هذا العمر تحديدًا، أنني تعلمت من زينب... نعم، من زينب الفتاة الهادئة الشابة. تعلمت منها أن الهدوء هو المنتصر الحقيقي، وأن الصخب لا يورث سوى الخسارة. حين كنتُ شابة، نشب بيني وبين أباكم خلافٌ كبير، قلب حياة الجميع جحيمًا لا يُطاق. كنتُ كالنار المشتعلة، أحرقتُ بلهيب غضبي قلوبًا كثيرة؛ جدكم، أباكم، عمكم... كلهم أصابهم من شراري نصيب. جرحتُ من أحبّ، حتى وهيب –الذي لم يكن قد وُلد بعد– ناله أثر الجراح، كما نالتها أمل في تعثر زواجها الأول وحرمانها من حبها لوهيب، وجميلة أيضا التي انتزعتُها من عالمها لأقدّمها لرجلٍ كان قلبه منشغلًا بغيرها.

نعم، أعترف الآن أن الحكمة كانت الغائبة الكبرى، وأنه كان عليّ يومها أن أتعلم التسامح، وألا أُحمّل الآخرين وجعي، ولا أورّث القطيعة لجيلٍ لم يكن طرفًا في وجعي. في ذلك الوقت أصررتُ على أن يكون لي بيتٌ مستقل، بيتٌ أظنه سيمنحني السلام. واليوم، كم تناسيتُ أن هذا الحلم نفسه يسكن قلب كل زوجةٍ جديدة! كم تغافلتُ عن أن للآخرين أحلامًا تشبه تلك التي كانت تملأني حين كنتُ شابة!

صمتت مرة أخرى ثم نظرت لابنتها وقالت:

- دخلتِ يا إشراقُ في مشاكل كثيرة مع إخوتكِ، وتشاجرتِ معهم حتى وصل شجاركم عنان السماء، وعلى ماذا حصلتِ؟ لو أدرتِ الأمور بهدوء ونظرتِ إلى الحلول، فلربما خطرت لكِ هذه الفكرة يومها، وما كنتِ تزوجتِ أصلًا، ولكن الغضب صوّر لكِ الزواجَ حلًا للانتقام من إخوتكِ، فانتقمتِ منهم ومن نفسكِ. لذلك اسمعوا كلكم.

صمت الجميع في ذهول وتعجب... واستمع الجميع للأمّ وكان الترتيب على ان يتم بيع منزلهم – وقد اتفقت مع أخيها على مشتري سوف يقدم فورا مبلغاً جيداً– وخاصة أن البيت ثلاثة طوابق تقريبا، وسيتم شراء عمارة جديدة– ساعدها أخوها في إيجاد هذه العمارة–، وليست بعيدة من بيتهم الأصلي، مكوّنة من ثلاثة طوابق كل طابق شقتين، وسيكون لكل واحد شقة بما فيهم عبدالله، وعلى صالح الانتقال إلى إحدى هذه الشقق، وشقة لها وأخرى لإشراق ستظل مغلقة لحين قرار العودة، أسفل العمارة ثلاثة محلات يمكن لعبد الله –إذا رغب– نقل عمله إلى أحد هذه المحلات، ويتم تأجير الباقي.

وبعدها كل ما يصلهم من دخل (من مزارع العنب والقات) وإيجار المحلات أسفل العمارة، يتم تقسيمه بينهم بما فيهم هي وإشراق، وأخبرتهم أن بقاءها هي وإشراق في مصر لا يخضع لوقت محدد ولا ينتهي بانتهاء إشراق من الدراسة. دارت نقاشات كثيرة وعبّر الكل عن عدم اقتناعهم، وتعب الجميع ولكن بالأخير

وكما هو معتاد، كان كلام وقرار الأمّ هو القرار الأخير، وعلى الجميع التنفيذ. أنهت الأم شرحها للواقع الجديد، وقالت:

- لم يعُد بمقدوري التمسك بهذا الدار، الذي هو ذكرى لأبيكم، ولم يعُد لدي القدرة على التمسك بما أريد، لدي واجب ومهمة عليّ القيام بهما، وعليكم أن تنطلقوا في الحياة كما تريدون وليس كما أريد أنا، وأنا متأكدة أن النتيجة ستكون لصالحكم، ورياح التغيير تهب على الجميع، فلِما لا تهب على هذا الدار العتيق؟

حلّق الأولاد حول أمّهم وكل واحد في تفكير ورهبة وخوف من القادم، وأخذوا يتبادلون الأحاديث عن القادم والمستقبل القريب، وتشعّب الحديث إلى الذكريات والماضي البعيد، وخطواتهم الأولى ومواقف من هنا ومن هناك، تشاركهم إشراق، ثم نهضوا بعد أكثر من ساعة، وقد خفّت الصدمة وهدأت النفوس، خرج الإخوة من حجرة والدتهم وسمعوها تقول بحزن:

- سامحك الله يا وهيب خرجت من طوق الأسرة.

*****

لم تبق العمة وابنتها إشراق وقتا طويلا بعد اتخاذ القرار، ولم ينتظرا ترتيب الأمور وفقا للاتفاق الذي تم بين الأمّ وأولادها، كان على إشراق العودة لدراستها، وعلى الأمّ مرافقتها. لم تستوعب الزوجات هذا القرار المفاجئ وشعر الكل بظلال الحزن والترقب والخوف يفرد جناحيه على المنزل وعلى كل من فيه،

ساد الصمت أغلب الأيام التي فصلت بين اتخاذ القرار وموعد السفر، تواجدت زينب وصالح أغلب الأوقات في المنزل مع الأسرة، كافة الإجراءات تأجلت حتى يستوعب الجميع ما حدث ويفكر فيه بتروٍ.

جاء يوم السفر، واستيقظ الجميع مبكرين، وجاء عبد الله وأسرته وصالح وزينب مع أولادهما منذ الساعات الأولى لليوم. ودّعت الأمّ المعاونة وهمست لها قائلة "احفظي الأمانة"، وكانت تقصد جميلة فالقرار كان ينص على أن تبقى المعاونة معها حتى لا تبقى وحدها؛ لذا لم تخاطر الأمّ بأخذ المعاونة معها إلى القاهرة، كانت تشعر أن لها دور بما تعانيه جميلة، ولم ترغب بتركها وحيدة.

أُنزلت الحقائب ووضعت في سيارة عبد الله، وودعت العمة وإشراق الزوجات بابتسامة هادئة وأحضان صادقة، كانت هدى وزينب صامتات ومتأثرات لهذا الرحيل المفاجئ، بينما واصلت جميلة نحيبها وقد شعرت أن العمّة برغم كل المشاكل كانت لها أمّ، ومن سوء حظها فقدت الأمّ للمرة الثانية، وقد خصتها العمّة بحضن أكبر وهمست لها بكلمات قليلة لا تذكر جميلة ما هي من شدة حرقة بكائها. نهض عبد الله وسميرة لاصطحاب الأم وإشراق إلى المطار. خرج المسافرون والمرافقون وخيّم الصمت على الجميع بعد ضجيج الوداع، ولم يكن هناك إلا صوت نحيب المعاونة في الطابق الأعلى، وصوت بكاء جميلة المكتوم.

جلست هدى وزينب وجميلة في ذهول ممّا حدث فجأة؛ وقد شعرنْ أن العمّة مهما كانت تُحزِنهن في مواقف عدة، إلا أنها بالفعل أمّ لهن، وأن رحيلها بهذا الشكل لم يخطر على بالهن.

- لم يأت!! تمتمت جميلة وسط بكائها الذي هدأت شدته، لم تستوعب هدى فتساءلت:
- من؟ همست لها زينب:
- تقصد وهيب يا هدى، وعادت جميلة تقول بصوت باكٍ:
- أكبر حدث في الأسرة ولم يأتِ، لم يودّع أمه، لقد مات وهيب لم يعُد موجود في حياتنا، يا لأولادي البائسين، أيتام أصبحوا أيتام، وأبوهم فوق هذه الأرض.

*****

انفرد عماد وصالح وأخذا جنبا لتدبير تنفيذ القرار، والذي سيأخذ وقتا حتى يُنجز بالكامل؛ فالأمّ قررت ونفذت في وقتٍ قصير هي فترة إجازة اشراق. تذكّر صالح قول أمّه "إني لا أسعى إلا لبقائكم كإخوة معا، الحياة تحتاج ترابط وتعاضد"، رغم أن القرار كان بطعم الرحيل، ورغم أن عبد الله وعماد وصالح لم يقتنعوا بترك دار طفولتهم وحياتهم، إلا أن هدى لم تصدق أن تتبلور الأمور بهذه الطريقة، وأن يصبح لها شقة مستقلة وملك أيضا دون أن تسعى لذلك، أو حتى تحلم به،

واستبشرت جميلة أيضا خيراً من أجل أولادها، وحتى سميرة التي كانت تسكن في شقة ضيقة منذ أن عادا عند اندلا ع الحرب شعرت أنه آن أوان التغيير.

*****

وقرر عبد الله أن يكون حازماً مع وهيب، وأن يعطيه صورة واضحة عمّا يمكن أن تسير عليه الأمور مع عائلته إذا استمر بتجاهلها، وحزم أمره وذهب إلى المستوصف دون أن يعلمه مسبقاً، سأل عن مكتبه ودخل دون أي مقدمات؛ وجلس أمام أخيه الذي اعترته الدهشة والخوف بأن يكون وراء هذه الزيارة خبرٌ فاجع، تمتم:

- مرحبا! وعيناه مثبتتان على ما سيقوله أخوه.
- هل تعلم أن والدتك قد رحلت للاستقرار في مصر؟

اتسعت عينا وهيب دهشة ولم ينطق بحرف، فآخر ما وصله عن طريق شقيقه عبد الله هو وجوب الحضور لاجتماع عائلي مهم. أكمل عبد الله:

- هل تعلم أننا بعنا البيت بالطبع لم نحتَج لموافقتك؛ ولم تأخذ موافقتنا حتى نحن على أي حال؛ فهو كما تعلم باسم أمّي؟

لم يستوعب وهيب ما يدور أمامه من حديث، وتمتم مرة أخرى بذهول:

- أي بيت؟
- البيت الذي ولدت أنت فيه، عشت كل طفولتك وكل شبابك حتى صاحبت الشيطان وتركته.

- لماذا؟
- الأهم الآن أني قررت أن تعود جميلة إلى قريتها؛ وأرسل أولادك إليك.

نهض وهيب من الدهشة، ورد بفزع:

- ماذا تقول؟ من سمح لك؟
- لا أستطيع التكفل برعايتهم مالياً، جميلة مازالت زوجتك ولكنك كما يبدو نسيت، ليس لديَّ وقتٌ لمتابعة دراستهم واحتياجاتهم بينما أبيهم على قيد الحياة؟
- لا أتوقع أن تعمل هذا.
- مضطر مع الأسف.
- قل لي ما هو المطلوب مني وأنا أنفذ؟
- المطلوب ان تقوم بدورك كأب، سوف أفتح لجميلة حساب باسمها مع ياسر، تتكفل أنت بدفع مبلغ محدد لهذا الحساب شهريا؛ وتلتزم برؤيتهم على الأقل كل أسبوعين، وتتابع شؤونهم الدراسية.
- موافق، وأنا فعلا مقصر في حق أمّي وأسرتي.

ساد الصمت فترة بين الشقيقين، ثم بدأ عبد الله قصّ الحكاية من بداية طلاق إشراق إلى ما تم في حياة الأسرة وما آلت إليه ظروف أسرته، وسرد عليه ما أُستجد في حياة جميلة؛ وأكد عليه ضرورة التزامه بالنفقة الشهرية، ومتابعة أولاده كل حينٍ وآخر.

وهكذا بدأت تدابير التغيير الجذري في حياة الجميع، وتم بيع الدار وغادروه بكثير من الشجن والحزن خاصة عماد وصالح، وأُكملت إجراءات شراء العمارة بسهولة؛ حيث كان الاتفاق مع صاحب العمارة قد تم، ووثقت عمليات البيع والشراء، وتم نقل محتويات بيتهم السابق إلى الشقق الجديدة، وأكملوا تأثيث الشقق بما تبقى من قيمة بيتهم بعد دفع قيمة العمارة وإرسال نصيب الأم. أجّل صالح الانتقال لحين استكمال الشهرين المدفوعة مقدما، وكان سعيدا جدا بعودته والسكن في شقة ملكٍ له؛ وأن يكون جيرانه هم إخوته. وأجلّ عبد الله أيضا النقل لحين ترتيب الكثير من أموره الخاصة؛ وقد بدأ يدرك أنه محظوظٌ أيضا بانتقاله إلى شقة ملك وأوسع من شقته؛ وبتوفير الايجار وكذلك تغيير مكان شركته؛ وإن كان ما زال ملزماً بدفع الإيجار؛ والأهم من ذلك بقاؤه بقرب إخوته وتمتم "*وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم*".

*****

تم تخصيص الشقة في الدور الأول والذي كان مرتفعا بحجم ارتفاع المحلات أسفله للأمّ، والشقة المقابلة لها لإشراق؛ وتم تأثيث شقة الأمّ أيضا وتجهيزها لتكون باستقبالها هي وإشراق عند عودتهن في الاجازات، بينما أُغلقت شقة إشراق حتى تتولى أمرها بنفسها، وتم تخصيص الشقتين في الدور الثاني لصالح

وأسرته وجميلة وأولادها، وكان الدور الثالث من نصيب عماد وأسرته وعبد الله وأسرته.

جابت هدى الشقة التي كانت لا تزال خالية والفرحة تملأُ قلبها وهي تشاهد الأولاد يتقفزون ويعبرون عن بهجتهم، وبنفس الوقت كانت جميلة بصحبة زينب تجوب شقتها وقلبها يملؤوه الرهبة والخوف وقليل من الفرحة، سوف تكون سيدة بيتها وسيكون لأولادها حجرتهم الخاصة، وستكون المعاونة خير رفيقة لها.

دخلت زينب وجميلة الحجرة الرئيسية والتي كانت واسعة مع حمام ملحق بها؛ فشهقت جميلة مبهورة:

- أنها واسعة سوف أخصص جزء منها لعملي، تحتاج لبعض التجهيزات لتكون ركناً مناسبا للعمل.
- هناك محلات أسعارها رخيصة، يمكننا الذهاب إليها واختيار المناسب.
- شكرا لكِ زينب أنكِ نعم الأخت.

واصلنْ تفقُد غرف الشقة، وكان المجلس متوسطاً؛ ولكنه كبير من وجهة نظر جميلة؛ فضحكت وهي تقول لزينب:

- يا الله! كم من المدعوات يمكنهن ملء هذا المكان؛ لو كان قُسِم قسمين لكان أفضل.

ردت زينب:

- يمكن لنا أن نقسمه لِما لا؟ لا تنسي أن العمارة ملك لنا.

- سيكون جميلاً أن نخصص لأمّي نزيهة حجرة مناسبة.
- فكرة جميلة إنها تستحق.

أخبر عبد الله جميلة ما كان من الاتفاق بينه وبين وهيب، سعُدت من أجل أولادها ولكنها قررت أنه إذا صادف ودخل الشقة أن تلتزم بحجابها؛ وتُكلّف المعاونة باستقباله. أصبح وهيب غريباً ولم يعُد له وجود في حياتها أو قلبها أو هكذا قررت بحزم.

وهكذا كان لهم ما أرادوه؛ ومع مرور الشهور انتقل الجميع إلى شققهم الجديدة بعد استكمال تأثيثها، وتم تنسيق الحوش خلف العمارة حتى يصبح ملعباً نظيفاً للأولاد، وكان العام 2025 قد شارف على الانتهاء، انتظر الجميع بدء صفحة جديدة لا يعلمون كيف ستكون!!!!! ولكنها الحياة لا شيء يبقى على ما هو عليه، دوام الحال من المحال، ولا أحد يعلم أين الخير؟ يعلم الإخوة إن وجودهم مع بعضهم البعض هو وصية الأمّ الغائبة، وبقاء الأحفاد مع بعضهم هو مطلب الجدة، عليهم الالتزام به وانتظار صلاح حال البلاد؛ وعودة أمهم وشقيقتهم إلى البلد؛ والاستئناس بقرب الأمّ التي كانت لهم دائما سنداً وقلباً.

*****